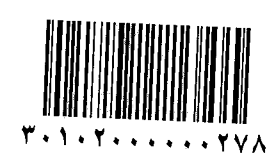
بسم الله الرحمن الرحيم



جامعة الملك عبد العزيز
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
الدراسات العليا التاريخية والحضارية

بلاد الحجاز في العصر الأيوبي

٥٦٧-٦٤٨هـ / ١١٧١-١٢٥٠م

بحث مقدم

لنيل درجة الماجستير في التاريخ الإسلامي

بإشراف الأستاذ الدكتور حسنين محمد ربيع

بحث الطالبة :

عائشة عبد الله عمر باقاسي

٩٩/١٤٠٠هـ / ٧٩/١٩٨٠م

طبع
سيده زكي

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس محتويات الرسالة

(بعده ب)

(بعده جـ)

-•-

طبع: سيدة زكي

المقدمة

دراسة نقدية لأهم مصادر البحث

" بسم الله الرحمن الرحيم "

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا ومولانا محمد بن عبدالله صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان الى يوم الدين ، وأحشرنا معهم برحمتك وعفوك يا أرحم الراحمين .

وبعد .

فانني أقول : وبالله التوفيق ، أن بلاد الحجاز تركت أثراً عظيماً شيقاً في نفوس المسلمين ، إذ إحتوت أرضه الطاهرة على مكة المكرمة ، مهبط وحي السماء حيث نزل جبريل الأمين على خاتم الأنبياء والمرسلين بأعظم معجزة بهرت الأنظار ، وأدهشت العقول ، وجعلتها تقف عاجزة أمامها لا تقوى على الإتيان بمثلها ذلك هو الكتاب الخالد الباقي الى أن يرث الله الأرض ومن عليها هو القرآن الكريم ، وكذلك حيث توجد الكعبة المشرفة التي جعلها الله قبلة المسلمين .

والحديث عن تاريخ بلاد الحجاز حديث ذو شجون يشد القارئ الى التعرف عليه ، ويظل الحديث بآفاقه وخصوبته مابقى على الأرض إسلام قائم ومسلمون يعتنقون الإسلام .

ولبلاد الحجاز أهمية كبيرة فى تاريخ الدولة الاسلامية منذ عصر الرسول صلى الله عليه وسلم وطيلة العصور الإسلامية حتى يرث الله الأرض ومن عليها . ومن الأسباب التى دعت الى إختيار هذا الموضوع، أنه موضوع جديد لمكانة بلاد الحجاز الخاصة فى قلوب المسلمين ولوجود الحرمين الشريفين . والدولة الأيوبية دولة جهادية حققت إنتصارات رائعة ضد الغزو الصليبي ، فأستردت بيت المقدس ، ودافعت عن البحر الأحمر من الخطر الصليبي ، وحرصت على مد نفوذها الى بلاد الحجاز .

والجدير بالذكر هنا أن المعلومات عن بلاد الحجاز فى العصر الأيوبي قليلة فى المصادر التاريخية للعصر الأيوبى ، وإن وجدت هذه المعلومات فهى خاصة بالناحية السياسية أكثر من النواحى الإقتصادية والاجتماعية والعلمية والثقافية .

يضاف الى ذلك قلة المعلومات الخاصة بتاريخ الحجاز فى العصر الأيوبي ، فضلاً عن بعثرتها فى مصادر عديدة ، وندرتها غالباً وعدم وضوحها أحياناً . لهذا تطلب جمع المعلومات اللازمة لموضوع البحث شيئا من العناء والمشقة ، وكان لهذه المعلومات التى جمعت من السطور وما بين السطور أثر وفير والحمد لله . وأستطاعت هذه المعلومات التاريخية أن تلقى ضوءاً ساطعاً عن تاريخ بلاد الحجاز فى العصر الأيوبى

بعد ترتيبها وتنظيمها ومناقشتها وإستنباط الحقائق التاريخية منها ، ويرجع الفضل في ذلك الى التوجيهات السديدة للمشرف على هذه الرسالة الاستاذ الدكتور حسنين محمد ربيع وملاحظاته القيمة الرشيدة .

ويجدر تقديم دراسة نقدية لأهم مصادر البحث عن بلاد الحجاز في العصر الأيوبي . ويأتي كتاب (المنتقى في أخبار أم القرى) للفاكهي على رأس قائمة المصادر التي عنيت بتاريخ مكة المكرمة وأخبارها في الجاهلية والإسلام ، وهذا الكتاب مازال بأكمله مخطوطاً بمكتبة الحرم المكي (١) . والفاكهي هو أبو عبد الله محمد بن إسحاق بن عباس الفاكهي المكي الأخباري المتوفى سنة ٢٨٥هـ / ٨٩٨ م . ومن تاريخ وفاة المؤلف يتضح أن المؤلف قد توفى قبل العصر الأيوبي ، ورغم ذلك الا أن المعلومات القليلة والمبعثرة بين السطور في هذا الكتاب مفيدة لدراسة النواحي الإقتصادية لبلاد الحجاز عامة .

وكتاب (الدرة الثمينة في أخبار المدينة) لإبن النجار من المصادر الهامة لموضوع البحث . وابن النجار هو محمد بن محمود الحسن المعروف بإبن النجار ، أديب ومؤرخ شافعي المذهب ولد سنة ٥٧٨هـ / ١١٨٢م ،

---

(١) الفاكهي : المنتقى في أخبار أم القرى ، مخطوط بمكتبة الحرم المكي رقم ١٤ تاريخ .

وتوفى سنة ٦٤٣هـ / ١٢٤٥ م. وترجع أهمية هذا الكتاب الى أن ابن النجار أمدنا بمعلومات طيبة عن المدينة المنورة فى العصر الأيوبى .(١)

ومؤلفات الفاسى(٢) تعتبر من أهم مصادر البحث . والفاسى هو محمد بن شهاب الدين أحمد بن على الفاسى المكى المالكى المذهب المعروف بتقى الدين قاضى المالكية بمكة المكرمة ولد سنة ٧٧٥هـ/ ١٣٧٧ م بمكة وعاش فيها وفى المدينة المنورة . وتعلم الفاسى على أيدى علماء أجلاء بمكة المكرمة والمدينة المنورة ، وتولى مناصب علمية عالية فى مكة المكرمة حتى صار شيخ الحرم الشريف ، وعنى بالتأليف وخاصة فيما يختص بتاريخ مكة . واستمر الفاسى فى التأليف والتصنيف بالإضافة الى التدريس حتى توفى بمكة المكرمة سنة ٨٣٢هـ / ١٤٢٨م . ومن أهم مؤلفاته التى إستفاد منها البحث كتابيه : العقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين ، وشفاء الغرام بأخبار البلد الحرام . وكتب الفاسى فى كتابه العقد الثمين(٣) تراجم أفاضل مكة المكرمة وعلمائها وقضاتها ، لذلك يعتبر كتابه هذا من خيرة ما كتب عن تراجم العلماء والقضاة والأدباء وغيرهم . واستوفى

---

(١) ابن النجار : الدرة الثمينة فى فضل المدينة ، مخطوط بمكتبة الحرم المكى رقم ١٩ تاريخ دهلوى .

(٢) عن الفاسى انظر: السخاوى : الضوء اللامع ، جـ ٧ ، ص ١٨-٢٠ ؛ البغدادى : هداية العارفين ، جـ ٢ ، ص ١٨٧ ؛ الزركلى : الاعلام ، جـ ٦ ، ص ٢٨٨ .

(٣) الفاسى : العقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين ، ٨ أجزاء ، تحقيق محمد حامد الفقى ، القاهرة ، ١٣٧٩هـ / ١٩٥٩م .

الفاسي في كتابه العقد الثمين أخبار الكثير ممن عاشوا في مكة المكرمة أو من جاور بها من علماء أجلاء شغلوا مناصب القضاء والتدريس وغيره . أضف الى ذلك أن كتابه هذا يعتبر الفريد من نوعه ، لأنه حوى معلومات ذات قيمة تاريخية وحضارية عظيمة ، وبهذا يعد كتابه موسوعة يزدان بها تاريخ مكة المكرمة العلمي والأدبي . وقد استفاد بحثي هذا استفادة كبيرة من كتاب العقد الثمين عند دراسة النواحي العلمية والثقافية فضلاً عن الحياة السياسية والاجتماعية . أما كتابه الثاني شفاء الغرام (1) فهو لا يقل أهمية عن كتاب العقد الثمين ، إذ أنه أمدنا بمعلومات تاريخية قيمة عن الحياة السياسية في الحجاز في العصر الأيوبي فضلاً عن النواحي الاجتماعية والعمرانية .

ولا يقل عن مؤلفات الفاسي أهمية كتابات مؤرخ مكة إبن فهد . وإبن فهد هو نجم الدين عمر بن محمد بن أبي المنير بن فهد القرشي الهاشمي المكي . ولد سنة ٨١٢هـ/ ١٤٠٩م بمكة المكرمة وتوفي بها سنة ٨٨٥هـ/ ١٤٨٠م . وإبن فهد من بيت علم ، رحل الى كثير من البلاد الإسلامية لطلب العلم والمعرفة منها مصر والشام ، وكتب كثيراً من المؤلفات منها (إتحاف الورى بأخبار أم القرى) ثم (التبيين في تراجم

---

(١) الفاسي : شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ، جزءان ، القاهرة سنة ١٩٥٦م .

الطبريين) و (بذل الجهد في من سمى بفهد) وغيرها من المؤلفات التى عنيت بتاريخ مكة المكرمة .[1]

وكتاب (إتحاف الورى بأخبار أم القرى) من أهم مصادر الرسالة وهو لا يزال مخطوطاً[2] ، ويعتبر من أكثر المصادر التى حوت معلومات قيمة بالنسبة لبلاد الحجاز فى العصر الأيوبى ، فقد أورد إبن فهد فى كتابه هذا معلومات هامة عن الناحية السياسية لبلاد الحجاز فى العصر الأيوبى، واهتم بصفة خاصة بذكر الحوادث التى وقعت فى مكة المكرمة حين سيطر آل رسول عليها . ورغم أن إبن فهد سرد الحوادث التاريخية على طريقة الحوليات ، غير أن الذي يؤخذ عليه أنه لم يعلق على هذه الحوادث ولم يحللها ، ولم يبحث عن دوافعها ونتائجها القريبة أو البعيدة . وإبن فهد مع ذلك لم يغفل النواحي الأخرى لبلاد الحجاز كالنواحي الإقتصادية والاجتماعية والعلمية ، والثقافية . وبالرغم من أن المعلومات التى أوردها قليلة وكانت على شكل عبارات قصيرة مبعثرة هنا وهناك ، ذكرها خلال سردها لحوادث تاريخية فى سنوات متباعدة ، فقد أفادت هذه المعلومات موضوع تاريخ بلاد الحجاز فى العصر الأيوبى لدرجة كبيرة .

---

(١) عن ترجمة النجم بن فهد ، انظر : السخاوى : الضوء اللامع ، ج ٦ ، ص ١٢٦ - ١٣١ ، الحصرى : نشر النور ، ج ١ ، ص ١١٥ .

(٢) إبن فهد : إتحاف الورى بأخبار أم القرى ، مخطوط بمكتبة الحرم المكى رقم ٢ تاريخ دهلوى .

وكتاب (الأرج المسكي في التاريخ المكي) لمحي الدين عبد القادر الطبري المتوفى سنة ١٠٧٠هـ/ ١٦٥٩م بمكة يعد من المصادر التاريخية لموضوع البحث[1] . ولا يعيب هذا الكتاب الا أن أغلب المعلومات التي أوردها الطبري تتعلق بالناحية السياسية فقط رغم وجود معلومات متناثرة تخص النواحي الإجتماعية والعلمية والثقافية .

وتعتبر كتابات النهروالي[2] من أهم مصادر موضوع تاريخ الحجاز في العصر الأيوبي . والنهروالي هو محمد قطب الدين بن أحمد علاء الدين ابن محمد بن قاضي خان بن بهاء الدين بن يعقوب بن حسن علي ، ولد سنة ٩١٧هـ/ ١٥٠٠م . والأرجح أنه ولد بالهند ، وتوفي في مكة المكرمة سنة ٩٩٠هـ/ ١٥٨٢م. وكان النهروالي من الأعيان المذكورين ، والفضلاء المشهورين ، مبجلاً محترماً ، جاور مكة المكرمة مع والده ، وتولى مناصب دينية عالية ، وكان مدرساً بالمدرسة السليمانية الحنفية ، ثم رئيساً لكتاب أشراف مكة المكرمة يكتب لهم الإنشاء ، له مؤلفات كثيرة منها تراجم طبقات الحنفية والبرق اليماني في الفتح العثماني ، والأعلام باعلام بيت الله الحرام الذي قدمه للسلطان العثماني مراد ، وذكر فيه موقع مكة

---

(١) عبد القادر الطبري : الأرج المسكي في التاريخ المكي ، مخطوط بمكتبة الحرم المكي رقم ٣ تاريخ .

(٢) عن النهروالي ، انظر : الشوكاني : البدر الطالع ، جـ ٢ ، ص ٥٧ - ٥٨ ؛ القطبي : تاريخ البلد الحرام ، ص٦ - ١٤ ؛ الزركلي : الأعلام ، جـ ٦ ، ص ٢٣٤ - ٢٣٥ .

وتاريخها وعجائبها ، وماقيل في حكم بيع دورها واجارتها ، والمجاورة بها والأخبار المتعلقة بها .

وأورد النهروالي في كتاب (الاعلام بأعلام بيت الله الحرام) معلومات بسيطة عن النواحي الإجتماعية والعلمية في العصر الأيوبي لبلاد الحجاز ، وأغفل النهروالي بقية النواحي الأخرى إغفالاً تاماً وخاصة النواحي السياسية والإقتصادية لبلاد الحجاز . ورغم ذلك الا أن البحث أفاد من المعلومات القيمة التي أوردها النهروالي في ذلك الكتاب القيم .

وكتاب (الجامع اللطيف في فضل مكة وأهلها وبناء البيت الشريف) لابن ظهيرة من أهم مصادر البحث ، ومؤلفه هو جمال الدين محمد بن جار الله بن محمد نور الدين بن أبي بكر المعروف بإبن ظهيرة المتوفى سنة ٩٨٦هـ / ١٥٧٨م .

وقد إحتوى كتاب إبن ظهيرة على معلومات طيبة ألقت بعض الضوء على الناحية السياسية لبلاد الحجاز في العصر الأيوبي . أما معلومات كتاب إبن ظهيرة بالنسبة للتاريخ الإقتصادي لبلاد الحجاز في العصر الأيوبي ، فقد كانت ضئيلة جداً ، وفي النواحي الإجتماعية والعلمية تكاد المعلومات أن تكون معدومة .

أما بالنسبة لكتب التاريخ العام التي ساهمت في مد البحث بالمعلومات

(١) عن ترجمة ابن ظهيره ، انظر الحصرى : نشر النور ، حـ١ ، ص١١٤

اللازمة فأهمها كتاب (الكامل فى التاريخ) لابن الأثير الجزرى المتوفى سنة ٦٣٢ هـ/ ١٢٣٤ م.[١] وابن الأثير هو عز الدين على بن محمد الشيبانى ، ولد بجزيرة ابن عمر ونشأ بها وسكن الموصل مع والديه ، وهو ثالث ثلاثة إخوة عرف كل واحد منهم بناحية من العلوم وانصرف أوسطهم عزالدين الى التاريخ ، وكتاب إبن الأثير (الكامل) من كتب الحوليات التى سردت فيها الأحداث التاريخية على أساس الترتيب الزمنى ، غير أن إبن الأثير إهتم بالنواحي السياسية فقط كغيره من المؤرخين المعاصرين .

ويعتبر كتاب (الكامل) من أهم المصادر التاريخية للعصور الوسطى عامة ولبلاد الحجاز خاصة فقد أورد إبن الأثير فى كتابه كثيراً من المعلومات التاريخية التى أفادت هذا البحث خاصة عن تاريخ مكة المكرمة فى العصرين الفاطمى والأيوبى .

ويعتبر كتاب إبن واصل (مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب) من أهم مصادر البحث . وابن واصل الحموى هو القاضى جمال الدين محمد المتوفى سنة ٦٩٧هـ / ١٢٩٧ م[٢] ، ولقد أمدنا إبن واصل بمعلومات قيمة

---

(١) انظر : ابن الأثير : الكامل جـ ١ ص٩-١٥ ؛ ابن خلكان وفيات الأعيان جـ ٣ ص ٣٢٨ - ٣٤٩ ؛ الآسنوى : طبقات الشافعية جـ ١ ص ١٣٢-١٣٣.

(٢) عن ترجمة إبن واصل أنظر : ابن خلكان : وفيات الأعيان ، جـ ٣ ، ص٣٤٨ - ٣٤٩ ؛ الآسنوى : طبقات الشافعية ، جـ ١ ، ص ١٣٢-١٣٣ .

عن بلاد الحجاز في العصر الأيوبي ، في سياق حديثه عن أخبار الدولة الأيوبية في بلاد مصر والشام . وكتاب (مفرج الكروب) من الكتب التاريخية المهمة لموضوع البحث لأن إبن واصل قد شاهد بعينيه بعض الحوادث التي تعرض لها بالذكر في كتابه هذا .(١)

ومن المصادر الهامة لموضوع الرسالة كتاب (الدر المطلوب في أخبار بني أيوب) لابن أيبك الدواداري المتوفى سنة ٧٣٦هـ/١٣٣٢م تقريباً فهو الجزء السادس من كتاب (كنز الدرر وجامع الغرر) ، ورغم أن ابن أيبك الدواداري اهتم بأخبار بني أيوب في كل من بلاد مصر والشام في هذا الكتاب ، الا أن معلوماته عن بلاد الحجاز في العصر الأيوبي ضئيلة. وأفادت البحث من الناحية السياسية دون غيرها من النواحي الاخرى . وكذلك من المصادر الهامة لموضوع الرسالة مؤلفات المؤرخ الكبير تقي الدين أحمد بن علي المقريزي المتوفى سنة ٨٤٥هـ/١٤٤١م .(٢) ومن أهم مؤلفاته العديدة التي أفادت البحث كتاب (إتعاظ الحنفاء بأخبار الفاطميين الخلفاء) ، وكتاب (السلوك لمعرفة دول الملوك) ، فكتاب إتعاظ الحنفاء أمد البحث بمعلومات قيمة وخاصة عن تاريخ بلاد الحجاز في العصر

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ٤ ، تحقيق دكتور حسنين ربيع ، المقدمة ص ٧ - ٨ .

(٢) عن المقريزي انظر : السخاوي : الضوء اللامع ، جـ ٢ ، ص ٢١-٢٥ ، البغدادي : هداية العارفين ، جـ ١ ، ص ١٢٧ .

الفاطمى . أما كتاب (السلوك لمعرفة دول الملوك) فقد أفاد البحث أيضاً بمعلومات تاريخية طيبة من تاريخ بلاد الحجاز فى العصر الأيوبى .

كما استفاد البحث من كتب الرحلات خاصة رحلة إبن جبير (١) . وابن جبير هو أبو الحسن محمد أحمد بن جبير الكناني الأندلسي الأديب المعروف ، الذى تعتبر رحلته وعنوانها (تذكرة بالأخبار عن إتفاقات الأسفار) من أهم الرحلات التى أشارت الى الحوادث التاريخية وغيرها فى بلاد الحجاز فى العصر الأيوبى . وزاد من أهمية رحلة إبن جبير أنه زار مكة المكرمة سنة ٥٦٧هـ / ١١٧١ م ، أى أوائل عصر صلاح الدين الأيوبي ، وأشار الى ما صادفه من خير ، وانتقد ما واجهه من مشكلات رآها خلال رحلته المشهورة الى بلاد الحجاز .

وكانت معلومات إبن جبير معلومات قيمة لموضوع البحث ، فقد وصف طريق الحج والصعوبات التى كانت تواجه الحجاج ، ووصف الحرمين الشريفين كما تحدث حديثا طيباً عن كثير من نواحي الحياة الإجتماعية لبلاد الحجاز فى العصر الأيوبى ، أضف الى ذلك اهتمامه أيضاً بالناحية السياسية لولاية مكة المكرمة والمدينة المنورة . ولا يعيب رحلة إبن جبير سوى المعلومات القليلة التى أوردها عن الحياة العلمية والثقافية فى بلاد الحجاز فى العصر الأيوبى .

---

(١) إبن جبير : تذكرة بالأخبار عن إتفاقات الأسفار . رحلة ابن جبير ، جـ ١ ، بيروت ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م .

هذه مقدمة لدراسة نقدية لأهم مصادر الرسالة التى إحتوت على مقدمة وخمسة فصول ، وخاتمة ، وأحتوت المقدمة على أهمية بلاد الحجاز ومكانته فى نفوس المسلمين ، وأسباب إختيار موضوع الرسالة ، ودراسة نقدية لأهم مصادر البحث . وعالج الفصل الأول وعنوانه (بلاد الحجاز قبيل العصر الأيوبي) موضوع الأوضاع السياسية لبلاد الحجاز فى أواخر العصر الفاطمى . وأوضحت الدراسة ضعف وإنهيار النفوذ الفاطمى فى بلاد الحجاز ، وما أدى اليه هذا الضعف من التنافس بين الخلافتين العباسية السنية فى بغداد والفاطمية الشيعية فى مصر لفرض سيادتها على بلاد الحجاز . وتناول الفصل الأول أيضاً دراسة موضوع محاولة الأمير قاسم بن هاشم التقرب الى الفاطميين ، وسفارة عمارة اليمنى الى الخليفة الفاطمى الفائز ، وعالج الفصل أيضاً مراحل ضعف النفوذ الفاطمى فى بلاد الحجاز مما مهد الى بسط النفوذ الأيوبى على بلاد الحجاز .

أما الفصل الثانى وعنوانه (النفوذ الأيوبى فى بلاد الحجاز) فقد ناقش الأسباب التى دعت الأيوبيين الى التطلع الى مد نفوذهم الى بلاد الحجاز ، وأهمها الوقوف فى وجه الخطر الصليبى الذى تعرضت له بلاد الحجاز خاصة فى عصر صلاح الدين وموقف الأيوبيين فى صد هذا الخطر . وعالج الفصل الثانى أيضاً موضوع التنافس الذى قام به آل رسول والأيوبيين لمد نفوذهم الى الحجاز ، وكيف أدى هذا التنافس بدوره الى زوال النفوذ الأيوبي عن بلاد الحجاز سنة ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م .

وناقش الفصل الثالث موضوع الأحوال الإقتصادية في بلاد الحجاز في العصر الأيوبي) فأوضحت الدراسة النشاط التجاري في مدن وموانئ الحجاز خاصة السلع التي كانت ترد اليه وما تصدره الى بعض مدن البلاد الإسلامية . وتعرض هذا الفصل أيضاً للضرائب والمكوس التي كانت تجبى في بلاد الحجاز ، لأنواع النقود التي كان يتعامل بها في العصر الايوبي .

وعالج الفصل الرابع موضوع (الحياة الإجتماعية في بلاد الحجاز في العصر الأيوبي) وتناول الفصل دراسة الطبقات المختلفة في المجتمع في كل من المدينتين المقدستين ، مكة المكرمة والمدينة المنورة ، وأنواع الأطعمة والأشربة والملابس التي كانت سائدة في هذه الفترة من تاريخ بلاد الحجاز . كما تعرض هذا الفصل أيضاً لدراسة موضوع الأعياد والمواسم والإحتفالات العائلية الدينية التي كانت تقام في بلاد الحجاز في العصر الأيوبي . وألقى البحث بعض الضوء على الجوانب العمرانية والمآثر التي قام ببنائها بعض السلاطين والأغنياء ، وتتمثل هذه الجوانب والمآثر الحسنة في مصانع المياه والبرك والآبار والعيون والأربطة .

والفصل الخامس والأخير من الرسالة ناقش موضوع (الحياة العلمية والثقافية في بلاد الحجاز في العصر الأيوبي) . والقى هذا الفصل الكثير من الأضواء على حلقات العلم التي كانت تعقد في المسجد الحرام ، كما القى الضوء على بيوت العلم في مكة المكرمة ، حيث كرس أصحابها حياتهم لنشر العلم . كما أنه تعرض الى دراسة موضوع المدارس والمكتبات التي

أنشئت في العصر الأيوبي . وبحث الفصل الخامس ايضاً تراجم مشاهير علماء وقضاة مكة المكرمة والمدينة المنورة الذين عاشوا في بلاد الحجاز في العصر الأيوبي .

وانتهى البحث بخاتمة إحتوت على أهم نتائج البحث .

ولابد في هذا المقام أن أتقدم بخالص شكري وتقديري وإعترافي بالجميل الى أستاذي المشرف الأستاذ الدكتور حسنين محمد ربيع ، فهو الذي أشرف على هذه الرسالة ، ولم يبخل عليّ طيلة مراحل البحث بغزير علمه ، وبتوجيهاته ، وإرشاداته العلمية السديدة جزاه الله عني وعن طلابه وطالباته خير الجزاء .

والله أسأله العون والسداد ، وأسأله تعالى التوفيق أولاً وأخيراً وفي كل آن انه سميع الدعاء ،

وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين .

وصلى الله على خاتم الأنبياء والمرسلين
وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً

-.-

الفصل الأول

بلاد الحجاز قبيل العصر الأيوبي

- ضعف النفوذ الفاطمي في بلاد الحجاز.
- التنافس بين الخلفاء العباسيين والفاطميين على بسط سيادتهم على بلاد الحجاز وأثر ذلك
- محاولة الأمير قاسم بن هاشم (٥٤٩هـ - ٥٥٦هـ/ ١١٥٤م - ١١٦٠م) التقرب إلى الفاطميين (سفارة عمارة اليمني للخليفة الفاطمي الفائز).
- نهاية النفوذ الفاطمي في بلاد الحجاز.
- ولاية عيسى بن فليتة ٥٥٧-٥٧٢هـ/ ١١٦١-١١٧٦م

ظل العباسيون يتمتعون بالسيادة على كل من مكة المكرمة والمدينة المنورة لا ينازعهم فيها منازع ، حتى استطاع الفاطميون أن يقيموا خلافتهم في شمال أفريقيا سنة ٢٩٧هـ/٩٠٩م . وأخذوا يعملون على توسيع رقعة دولتهم وذلك باستيلائهم على مصر والشام .(١)

ولم يكتف الفاطميون ببسط نفوذهم على مصر والشام سنة ٣٥٨ هـ / ٩٦٨م ، بل أخذوا يتطلعون الى مد نفوذهم وسلطانهم على الأراضي المقدسة بالحجاز ، لتصبح لهم بها الزعامة الروحية ، وبذلك يكونون قد حصلوا على الزعامتين الروحية والسياسية . يضاف الى ذلك أنهم سوف يكسبون خلافتهم قوة أمام العالم الإسلامي من جهة ، ويضعفون من شأن الخلافة العباسية من جهة أخرى . ومن الأسباب التي دعت الفاطميين الى مد نفوذهم الى مكة المكرمة والمدينة المنورة ، أن الحجاز قبلة المسلمين جميعاً بالإضافة الى وجود قبر السيدة فاطمة الزهراء التي تنتسب اليها خلافتهم الفاطمية بالمدينة المنورة .(٢) وبذلك استطاع الفاطميون أن يحققوا نفوذاً أكبر ، في الوقت الذي ظهرت فيه بوادر ضعف العباسيين .

---

(١) محمد جمال الدين سرور : النفوذ الفاطمي ، ص ١٤ .
(٢) عبد المنعم ماجد : ظهور الخلافة الفاطمية ، ص ٢١٩

ولما طمع الفاطميون فى السيطرة على الحجاز ، ظهرت فى ثنايا نزاعهم مع العباسيين حول السيادة على الأراضي المقدسة بالحجاز ، نظرية جديدة تؤكد أن أمير المؤمنين الحقيقي ، هو من استطاع بسط نفوذه على الحرمين المكى والمدنى.[١] وتطلب تحقيق هذا الهدف السياسي ، هدف تجاري ، هو حماية مصالح الفاطميين التجارية فى البحر الأحمر ، الذى تقع بلاد الحجاز على ساحله الشرقي . وقد تحققت للفاطميين السيادة على الحجاز في الفترة الأولى من خلافتهم بمصر ، لما كانت عليه الخلافة العباسية وقتذاك من ضعف . وتأكد لسكان بلاد الحجاز ضعف الخلافة العباسية عند إغارة القرامطة على مكة ، وانتزاع الحجر الأسود من مكانه فى الكعبة سنة ٣١٧هـ/ ٩٢٩م ، كما لمسوا قوة الفاطميين عند إعادة القرامطة الحجر الأسود الى مكانه سنة ٣٣٩هـ/ ٩٥٠م ، تحقيقاً لرغبة الفاطميين.[٢] وفضلاً عن ذلك فقد كانت الصدارة بمكة ، لأمراء الأشراف من بنى الحسن ، أما الصدارة فى المدينة المنورة فكانت لأمراء الأشراف من بنى الحسين وأصبح هؤلاء الأمراء سادة الحرمين الشريفين .[٣] وهؤلاء الأشراف وان كانوا يدينون بالمذهب

---

(١) سرور : النفوذ الفاطمى ، ص ١٤ ؛ حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ، ص ٢٣٧ ؛ عطية القوصى : تجارة مصر فى البحر الاحمر ، ص ١٠٨، ١٠٩

(٢) القوصى : تجارة مصر فى البحر الاحمر ، ص ١٠٩ ؛ سليمان مالكى : مرافق الحج ، ص ١٧٦ - ١٧٨ .

(٣) سرور : نفوذ الفاطميين ، ص ١٤ - ١٥ .

السنى ، الا أنهم يربطهم بالفاطميين شرف الإنتساب الى على رضي الله عنه وفاطمة الزهراء .(١)

وبدأ اهتمام الفاطميين ببلاد الحجاز منذ خلافة المعز لدين الله الفاطمي الذي تدخل في الشئون الداخلية لبلاد الحجاز منذ أن كان في المغرب وقبل الغزو الفاطمى لمصر . وأكد المؤرخ أحمد بن على المقريزى أن الخليفة المعز عندما بلغه أمر النزاع بين بنى الحسن وبنى جعفر ابن أبي طالب بالحجاز سنة ٣٤٨هـ/ ٩٥٩م ، قرر أن يعمل على حسم الخلاف بينهم ، فأنفذ اليهم سراً مالاً ورجالاً سعوا بين الطائفتين ، حتى تم الصلح بينهما . وقام رسل الخليفة الفاطمى المعز بدفع دية القتلى الى بنى الحسن من أموال المعز، وعقدوا بينهم صلحاً في المسجد الحرام.(٢)

وقد كان لموقف المعز هذا أثره العظيم على أمير مكة الحسن بن جعفر ، وهذا ما رمى إليه المعز لدين الله الفاطمي ، اذ شعر أمير مكة المكرمة الحسن بن جعفر بالإمتنان والشكر للخليفة الفاطمى المعز. فلما دخل جوهر الصقلي مصر سنة ٣٥٨هـ/ ٩٦٨م ، بادر حسن

---

(١) أحمد دراج : ايضاحات جديدة عن التحول فى تجارة البحر الأحمر ، مقال بالمجلة التاريخية المصرية ، (١٩٦٨)، ص ١٩٥ .

(٢) المقريزى: إتعاظ الحنفاء ، جـ ١ ، ص ١٠١ ؛ الخطط ، جـ ١ ، ص ٣٥٣ ؛ القوصي : تجارة مصر ، ص ١٠٩

ابن جعفر الحسني بالإستيلاء على مقاليد الحكم في مكة المكرمة ، ودعى للمعز على منابرها ، وكتب الى جوهر بذلك ، فبعث جوهر الصقلي بالخبر الى المعز ، فأنفذ الخليفة الفاطمي من المغرب الى حسن بن جعفر الحسني مقلداً إياه الحرم وأعماله .[١]

ومنذ سنة ٣٥٩هـ/ ٩٦٩م أخذ الخليفة الفاطمي المعز ، ومن خلفه من خلفاء الفاطميين يعملون على تعزيز سلطتهم على بلاد الحجاز ، وخاصة المدينتين المقدستين مكة المكرمة والمدينة المنورة ، بالأموال التي صاروا يرسلونها الى مكة والمدينة . وبذلك تيسر للفاطميين نشر نفوذهم في بلاد الحجاز . وفي سنة ٣٦٥هـ / ٩٧٥م بدأ الأشراف الدعوة للخليفة المعز الفاطمي بمكة المكرمة وأعمالها ، وفي مسجد ابراهيم يوم عرفة ، وفي مدينة الرسول عليه الصلاة والسلام . وكان هذا أول موسم دعي فيه للمعز بمكة المكرمة وبمدينة رسول الله صلي الله عليه وسلم ، فسر المعز بذلك ، وتصدق شكراً لله . وبذلك أصبح الحجاز يدين بالولاء للفاطميين بمصر .[٢] ومنذ ذاك الحين أضاف الأشراف في مكة المكرمة ، إثر

---

(١) المقريزى : اتعاظ الحنفاء ، جـ ١ ، ص ١٠١ ؛
De Gaury: Rulers of Mecca, P.59

(٢) المقريزى : إتعاظ الحنفاء ، جـ ١ ، ص ٢٢٥ ؛ سرور: النفوذ الفاطمي ، ص ١٥ ؛ القوصي : تجارة مصر ، ص ١٠٩ - ١١٠ .

إتصالهم بالفاطميين ، عبارة " حيّ على خير العمل " الى الأذان . وهكذا حذف إسم الخليفة العباسي من الخطبة فى مكة المكرمة [١] . ولم يتوقف الأمر على مكة المكرمة بل تعداها الى المدينة المنورة وظل اسم الخليفة الفاطمي يتردد على منابرها .

واستمرت الخطبة تقام للخليفة المعز الفاطمي فى بلاد الحجاز ، حتى توقفت في آخر أيامه وأول حكم الخليفة العزيز ، بسبب هجوم القرامطة على مصر والشام [٢] . وتبدل الحال في كل من مكة والمدينة ، بدخول إدريس بن زيرى الصنهاجي الذى أرسله الخليفة العزيز الفاطمي الى بلاد الحجاز سنة ٣٦٧هـ/٩٧٧م . فأستولى إدريس على مكة والمدينة ، وأقام الخطبة والدعاء للخليفة العزيز على منبرى الحرمين ، وتم هذا بعد هزيمة قوات الشريف جعفر بن محمد الذى هرب الى البادية [٣] .

ورغم محاولات الخليفة العزيز بسط نفوذه على بلاد الحجاز الا أن نفوذ الفاطميين فى هذه الفترة ، لم يكن مستقراً فى كل من المدينتين

---

(١) المقريزى : إتعاظ الحنفاء ، جـ ١ ، ص ١١٠ ؛ الخطط ، جـ ١ ، ص ٣٥٣ ؛ حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ، ص ٢٣٨ ؛ سرور : النفوذ الفاطمي ، ص ١٥ ؛ السباعى : تاريخ مكة ، جـ ١ ، ص ١٩٣ .

(٢) ماجد : ظهور خلافة الفاطميين ، ص ٢٢٢ .

(٣) ابن خلدون : كتاب العبر ، جـ ٤ ، ص ١٠١ .

المقدستين مكة والمدينة ، فما أن عادت الحملة العسكرية الفاطمية من بلاد الحجاز ، حتى عاد جعفر الى ولاية مكة وقطع الدعاء للعزيز على المنابر . وفي سنة ٣٦٨هـ/ ٩٧٨م استطاع أمير الحج العراقي أن يقيم الدعاء على المنابر لعضد الدولة بن بويه .[1] واستمر الدعاء والولاء للبويهيين لإرسالهم الأموال والغلات الى الشريف جعفر بن محمد حتى وفاته سنة ٣٧٠هـ/ ٩٨٠م . وأضطر الخليفة العزيز الى إرسال حملة عسكرية ثانية سنة ٣٨٠هـ/ ٩٩٠م الى بلاد الحجاز ، ضيقت الحصار على أهلها ، حتى نجح فى تثبيت نفوذ الفاطميين فى الحجاز . وقد عانت مكة من جراء هذه الحملة عناءً شديداً واشتد الغلاء فيها[2] وأخيراً آعيدت الخطبة والدعاء للخليفة العزيز على منابر مكة المكرمة والمدينة المنورة ، وانقطعت الدعوة للعباسيين وللأمير البويهي بهاتين المدينتين.[3]

ظل بنو الحسين فى المدينة المنورة موالين للفاطميين ، وكان طاهر ابن مسلم قد تولى الحكم فيها ومن بعده ابنه الحسن بن طاهر الذى لقب بمهنى، والذى سار على نهج أبيه ، في سياسة الولاء للفاطميين ،

---

(١) سرور : النفوذ الفاطمى ، ص ١٦ .

(٢) الفاسى : شفاء الغرام ، ص ٢٠٧ ؛ المقريزى : إتعاظ الحنفاء ، جـ ١ ، ص ٢٣٨ .

(٣) ابن خلدون : كتاب العبر ، جـ ٤ ، ص ١٠١ ؛ سرور : النفوذ الفاطمى ، ص ١٦ ؛ حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ، ص ٢٣٨ .

والدعاء لهم على منابر المدينة .[١] أما إمارة مكة المكرمة فكان يتولاها عيسى بن جعفر من بني الحسن الذى اضطر إزاء قدوم الحملة الفاطمية الى مكة سنة ٣٨١هـ / ٩٩٠ م للدعاء للخليفة الفاطمى العزيز بالله ، تفاديـاً للعواقب .[٢]

تولى أبو الفتوح حكم مكة سنة ٣٨٤هـ/ ٩٩٤م بعد أخيه عيسى بن جعفر وأستمرت في عهده الخطبة للخليفة الفاطمي[٣] ، ورغم محاولات الخليفة العباسي القادر بالله سنة ٣٩٦هـ/١٠٠٥م على حث أبى الفتوح للدعوة للعباسيين ، الا أن أبا الفتوح ظل مخلصاً للفاطميين وعمل على إبقاء سيادتهم على مكة المكرمة ومدها الى المدينة المنورة ، بعد أن أزال عنها نفوذ بني مهنى ، حين بلغه أنهم طعنوا في نسب الفاطميين ، وقطع الدعاء لهم ولكن بني مهنى عادوا الى المدينة المنورة بعد رجوع أبى الفتوح الى مكة المكرمة ، غير أنهم دخلوا منذ ذلك الوقت فى طاعة الفاطميين .[٤]

---

(١) سرور : النفوذ الفاطمى ، ص ١٦ ، القوصي : تجارة مصر ، ص ١١٢ .

(٢) المقريزى : إتعاظ الحنفاء ، جـ ١ ، ص ٢٧١ ، السباعى : تاريخ مكة ، جـ ١ ، ص ١٩٧ .

(٣) ابن خلدون : كتاب العبر ، جـ ٤ ، ص ١٠١ ، سرور : سياسة الفاطميين ، ص ٢٥ .

(٤) الناس : شفاء الغرام ، ص ٢٠٧ ، السباعى : تاريخ مكة ، جـ ١ ، ص ١٩٧ - ١٩٨ .

واستمرت الدعوة للفاطميين في الحجاز حتى سنة ٤٠٠هـ/١٠٠٩م ، حين استطاع الوزير أبو القاسم حسين بن علي المغربي الذى فرّ الى مكة من جور الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمي في مصر أن يحرض أبا الفتوح ابن جعفر على خلع طاعة الفاطميين ، ودعاه لأن يجعل من نفسه خليفة ، وجرأه على أخذ المال ونزع محاريب الذهب والفضة المنصوبة على الكعبة ، وقد ضرب بها دنانير ودراهم أسماها الكعبية .[1] وأقام أبو الفتوح بن جعفر الخطبة لنفسه في المساجد وتلقب الراشد بالله ، وبايعه بالخلافة العرب من بني سليم وبني هلال وبني عوف وبني عامر . ثم مالبث أن رحل في قوة عظيمة من عسكره يريد الشام حتى وصل منازل آل الجراح في الرملة فبايعوه وعلى رأسهم أميرهم حسان بن مفرج الجراح أمير طيء . وقام الخطباء يدعون باسمه في كثير من بلاد الشام .

ولما سمع الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله بأخبار حركة أبي الفتوح ابن جعفر أرسل في شوال سنة ٤٠١هـ/١٠١٠م جيشاً قوياً بقيادة باروخ للقضاء عليه . والتحم الجيشان في معركة بالرملة في فلسطين هزم فيها الجيش الفاطمي وقتل القائد ياروخ . عند ذلك لجأ الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله الى السياسة والحنكة .[2] قطع الخليفة الحاكم الميرة عن الحرمين

---

(١) ابن خلدون : كتاب العبر ، جـ ٤ ، ص ١٠١ ؛ المقريزى : إتعاظ الحنفاء جـ ٢ ، ص ٩٥ ؛ الخطط ، جزء ٢ ، ص ١٥٧ ؛ حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ، ص ٢٣٨-٢٣٩ ؛ سرور : النفوذ الفاطمي ص ١٧

(٢) المقريزى : إتعاظ الحنفاء ، جـ ٢ ، ص ٨٧ .

وأخذ في إستمالة أبي الطيب داود بن عبد الرحمن إبن عم أبي الفتوح بتوليته الحرمين ، وبعث إليه خمسين ألف دينار عيناً ، عدا الهدايا والخلع. ونجح أبو الطيب في صرف العرب عن طاعة أبي الفتوح ، والدخول في طاعة الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله ،فضعف بذلك أمر أبي الفتوح ،ولجأ الخليفة الحاكم الى مفاوضة بني الجراح وإستمالتهم اليه ، وانتزع منهم وعداً بالتخلي عن مناصرة أبي الفتوح ، بعد فشله في محاربتهم . وأدرك أبو الفتوح حقيقة الأمر ، وتبين له أن تخلي آل الجراح عنه قد يسلمه الى أسوأ العواقب ، لذلك لجأ الى مفرج والد حسان أمير طيء فتوسط مفرج بينه وبين الفاطميين لتسوية الأمور بينهما ؛ وكتب أبو الفتوح في نفس الوقت الى الحاكم بأمر الله الفاطمي يعتذر ، فقبل الحاكم عذره ، واعاده الى أمارة مكة المكرمة في سنة ٤٠٣هـ/١٠١٢م (١) .

وبعد أن استتب الأمر لأبي الفتوح ، عمل منذ عودته على إقامة الخطبة على منابر مكة للخليفة الفاطمي ، ونقش اسمه على السكة في سنة ٤٠٣هـ / ١٠١٢م (٢) . فلما توفي الخليفة الفاطمي الحاكم سنة ٤١٢هـ/ ١٠٢١م خطب لابنه الظاهر ،كما خطب من بعده للمستنصر سنة ٤٢٧هـ/١٠٣٦م (٣). وهكذا

---

(١) ابن خلدون : كتاب العبر ،جـ ٤ ،ص ١٠١ ؛ القلقشندي : صبح الاعشى ،جـ ٤ ،ص ٢٦٩.

(٢) المقريزي : إتعاظ الحنفاء ،جـ ٢ ،ص ٩٥ ؛ الخطط ،جـ ٢ ،ص ٢٨٨ ؛ القلقشندي :صبح الاعشى ،جـ ٤ ،ص ٢٦٩ ؛ سرور :النفوذ الفاطمي،ص١٩

(٣) ابن خلدون : كتاب العبر ،جـ ٤ ،ص ١٠٢ .

ظل أبوالفتوح مواليًا للخلفاء الفاطميين حتى توفى سنة ٤٣٠هـ/ ١٠٣٨م وخلفه ابنه محمد شكر الذى سار على نهج أبيه فى ولائه للفاطميين ، فساءت علاقته بالعباسيين . واستولى محمد شكر على المدينة المنورة بعد محاربة أهلها بنى الحسين وبذلك تمكن من الجمع بين الحرمين تحت ولايته . وقد توفى سنة ٤٥٣هـ/ ١٠٦١م ، وبموته إنقرض حكم بنى سليمان بمكة المكرمة . واستقل بأمارتها بنو هاشم الذين كانت الفتن متصلة بينهم وبين بقايا السليمانيين .(١)

وبعد موت محمد شكر آخر أمراء السليمانيين استولى رئيس الهواشم محمد بن جعفر بن أبى هاشم(٢) على أمارة مكة المكرمة فى سنة ٤٥٤هـ/ ١٠٦٢م وطرد بقايا السليمانيين من الحجاز فأتجهوا الى اليمن . وحكم محمد بن جعفر ابن أبى هاشم أمارة مكة المكرمة بعد أن أمر بالدعاء للخليفة الفاطمى المستنصر بالله(٣) ، غير أن محمد بن جعفر بن أبى هاشم لم يثبت على ولائه للفاطميين ، وكان معهودًا عنه عدم الوفاء ، فقد بدل الدعاء في

---

(١) الفاسى : شفاء الغرام ، ص ٢٠٩ ؛ القلقشندى : صبح الاعشى ، جـ ٤ ، ص ٢٦٩ .

(٢) نسبه الى أبى هاشم ، محمد بن الحسن بن محمد بن موسى بن عبد الله ابن أبى الكرام ابن موسى الجون بن عبد الله بن حسن بن الحسن السبط ، انظر : القلقشندى : صبح الاعشى ، جـ٤ ، ص ٢٧٠ ؛ ماجد : ظهور خلافة الفاطميين ، ص ٢٢٨ .

(٣) ابن خلدون : كتاب العبر ، جـ ٤ ، ص ١٠٣ ؛ القلقشندى : صبح الاعشى ، جـ ٤ ، ص ٢٧٠ .

المنابر فجعله لبنى العباس ، واضطر الخليفة المستنصر بالله الفاطمى الى إنفاذ جيش الى مكة سنة ٤٥٤هـ/ ١٠٦٣م ،بقيادة على بن محمد الصليحى الذى كان قد ملك اليمن .[١] وقد عمل الصليحى على إستمالة أهل مكة الى جانبه بما كان لديه من أموال[٢] . وكسا الكعبة كسوة من الحرير الأبيض ، ورد حلية البيت اليه بعد أن استعادها من بنى حسن السليمانيين ، الذين كانوا قد أخذوها معهم الى اليمن فأشتراها منهم ،وأعادها في نفس العام الى البيت واستخلف على مكة المكرمة محمد بن جعفر بن أبى هاشم، وعاد الى اليمن[٣] .

على أن مصر قد شغلت فى أواخر عهد الخليفة المستنصر ، بما انتابها من أزمات إقتصادية ، لم تستطع بعدها أن تحتفظ بالسيادة على بلاد الحجاز، اذ أن الأموال التى كانت ترد الى الحجاز من مصر قد إنقطعت بسبب السنوات التى عرفت بالشدة العظمى التى حلت بالبلاد المصرية منذ سنة ٤٤٦هـ/ ١٠٥٤م، وأستمرت لعدة سنوات خلال حكم الخليفة المستنصر بالله الفاطمى .[٤] وقد كانت سنون جذب وقحط شديدين شطى معظم

---

(١) المقريزى : إتعاظ الحنفاء ، جـ ٢ ، ص ٢٦٨-٢٦٩ ؛ سرور : سياسة الفاطميين ، ص ٢٧-٢٨ .

(٢) سرور : النفوذ الفاطمى ، ص ٢٠ .

(٣) الجزيرى : درر الفوائد ، ص ٢٥٥ .

(٤) المقريزى: إتعاظ الحنفاء ، جـ ٢ ، ص ٢٢٦- ٢٢٩ .

الأراضى الزراعية ، فأزداد الغلاء ، وقلت الأقوات ، وقد قيل أن الناس أكلوا الكلاب والقطط ، ثم أكلوا بعضهم بعضاً . وانتشرت الأوبئة فتفاقمت الشدائد حتى قيل أنه كان يموت بمصر كل يوم عشرة آلاف نفس .[1]

ولم يكن من المنتظر بعد كل هذه الإضطرابات التى عمت البلاد المصرية خلال سنى الشدة المستنصرية ، أن تستطيع الدولة الإحتفاظ بالبلاد التابعة لها . وعندما احتاج محمد بن جعفر بن أبى هاشم أمير مكة الى المال أخذ قناديل الكعبة وستورها وصفائح بابها والميزاب ، وصادر أموال أهل مكة ، وأمر بحذف اسم الخليفة المستنصر بالله الفاطمى من الخطبة ، وأمر الخطباء بالدعاء للخليفة القائم العباسى فى موسم سنة ٤٦٢هـ/١٠٦٩م .[2] وسبب هذا التبديل بالدعاء فى الخطبة من الفاطميين الى العباسيين ، أن الخليفة المستنصر بالله الفاطمى كان ينفق فى كل سنة مائة وعشرون ألف دينار على القافلة المجهزة الى مكة ، وبإنقطاع هذه الأموال إنقطعت الدعوة للفاطميين .

---

(١) المقريزى : إتعاظ الحنفاء ، جـ ٢ ، ص ٢٩٦ - ٢٩٧ ؛ الخطط ، جـ ١ ، ص ٣٣٧ ؛ إغاثة الأمة ، ص ٢٣ - ٢٤ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٨ ، ص ١٠٧ - ١٠٨ ؛ المقريزى : إتعاظ الحنفاء ، جـ ٢ ، ص ٣٠٤ ؛ القلقشندى : صبح الاعشى ، جـ ٤ ، ص ٢٧٠ ؛ الجزيرى : درر الفوائد ، ص ٢٥٥ - ٢٥٦ .

وفى تلك السنة (٤٦٢هـ/١٠٦٩م) زحف عضد الدولة الب أرسلان السلجوقى من خراسان الى حلب ، فأتاه الى هناك رسول صاحب مكة محمد بن جعفر بن أبى هاشم ومعه ولده يخبره بإقامة الخطبة للخليفة القائم بأمر الله وللسلطان السلجوقى بمكة ، واسقاط الخطبة للعلوى صاحب مصر. فأعطاه السلطان عضد الدولة ألب أرسلان ثلاثين ألف دينار ، وخلعاً نفيسة ، وأجرى له كل سنة عشرة آلاف دينار ، ووعد عضد الدولة أنه اذا قام أمير المدينة المنورة ، بحذف اسم الخليفة الفاطمى من الخطبة ، واقامتها للخليفة العباسى ، فسوف يمنح عشرون ألفاً ، ويجرى له كل سنة خمسة آلاف دينار .(١)

وزحف محمد بن جعفر بن أبى هاشم بجيش من الأتراك ، واستولى على المدينة المنورة ، وأخرج منها بنى الحسين. وبذلك جمع بين إمارة الحرمين ، ودانت بلاد الحجاز مرة أخرى للخلافة العباسية .(٢)

غير أن محمد بن جعفر بن أبى هاشم كان متذبذباً بين الفاطميين والعباسيين ، ومنقاداً بانجذاب أشد الى الطرف الذى يمنح هبات وعطايا أكثر ، فيقيم الدعوة للخليفة طالما استمر الخليفة بامداده بالأموال .(٣) شعر الفاطميون بعد ذلك أنه حان وقت العمل

---

(١) ابن الأثير: الكامل ، جـ ٨ ، ص١٠٧-١٠٨ ؛ المقريزى: الحنفاء ، جـ ٢ ، ص٣٠٤ ؛ القلقشندى: صبح الاعشى ، جـ٤ ، ص٢٧٠ ؛ الجزيرى: درر الفوائد ، ص ٢٥٥ - ٢٥٦ .

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ ٤ ، ص ٢٧١ .

(٣) ابن تغرى بردى: النجوم ، جـ٥ ، ص١٤٠ ؛ سرور: سياسة الفاطميين ، ص ٣١ ؛ ماجد : ظهور الخلافة الفاطمية ، ص ٢٣٢ - ٢٣٣ .

لإستعادة الخطبة لهم في بلاد الحجاز . فأرسل المستنصر بالله الخليفة الفاطمي في سنة ٤٦٧هـ/ ١٠٧٤م الى محمد بن جعفر بن أبى هاشم هدية جليلة ، ورسالة طلب منه فيها أن يعيد الخطبة قائلاً : "إن إيمانك وعهودك التي كانت للقائم وللسلطان ألب أرسلان قد ماتا". فخطب محمد بن جعفر للخليفة الفاطمي المستنصر ، وقطع خطبة المقتدى العباسي ، بعد أن كانت الخطبة للفاطميين قد انقطعت أربع سنين وخمسة أشهر .(١)

لم تستمر الدعوة للفاطميين في بلاد الحجاز طويلاً ، بدليل أن إبن الأثير ذكر في كتابه الكامل في التاريخ : أن الخليفة العباسي المقتدى بأمر الله ، أرسل الى محمد بن جعفر بن أبى هاشم في موسم سنة ٤٦٨هـ/ ١٠٧٥م ، عروضاً جديدة ، منها أن يمنحوه عشرين ألف دينار تعويضاً له عما فاته في السنين الماضية ، فقبلها ، وخطب للخليفة العباسي المقتدى .(٢)

وقد ذكر القلقشندى أن الخطبة ظلت تقام للعباسيين في كل من

---

(١) ابن الأثير: الكامل ، جـ ٨ ، ص ١٢١ ؛ المقريزى: إتعاظ الحنفا ، جـ٢ ، ص ٣٢٢ ؛ ابن تغرى بردي : النجوم ، جـ ٥ ، ص ٢٧٠ ؛ القلقشندى : صبح الاعشى ، جـ ٤ ، ص ٢٧٠ ؛ سرور جـ : سياسة الفاطميين ، ص ٣٠ - ٣١ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٨ ، ص ١٢١ ؛ انظر أيضاً المقريزى : إتعاظ الحنفاء ، جـ ٢ ، ص ٣١٥ .

مكـــة المكرمة والمدينة المنورة ، الى أن توفى الخليفة المقتدى العباسى سنة ٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م .[١] وكان من المتوقع بعد كل هذه المنح والعطايا ، التى وردت الى محمد بن جعفر بن أبى هاشم في بلاد الحجاز ، أن يتحسن حال هذه البلاد ، ولكنه على العكس لم يعمل محمد بن جعفر على تنظيـــم الأمور في الأراضي المقدسة ، وإقرار الأمن بها ، زد على أنه قد نهـــب الحجاج في سنة ٤٨٦هـ/ ١٠٩٣م ، وقتل منهم خلقاً كثيراً ، حتى أصبـــح الحجاج غير آمنين على أنفسهم في أواخر أيامه .[٢]

وهكذا تنافس العباسيون والفاطميون على السيادة على بلاد الحجاز، بإشباع مطامع هؤلاء الأمراء ، الذين أقاموا الخطبة للخلفاء ، الذيـــن يواصلون إمدادهم بالأموال ، ولا يعنون من جانبهم بإصلاح بلادهـــم . مما أدى الى تأخر بلاد الحجاز وضعف شئونها الإقتصادية والثقافية .[٣] وقـد أساء هذا الى البلاد المقدسة إساءة شديدة ، وأدى الى قلة عدد سكان مكة . والدليل على ذلك ما ذكره الرحالة ناصرى خسرو في رحلته الـــى بلاد الحجاز سنة ٤٤٠هـ/ ١٠٤٨م ، أنه قدر عدد سكان مكة القاطنـــين

---

(١) القلقشندى : صبح الاعشى ، جـ ٤ ، ص ٢٧٠ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٨ ، ص ١٧٣ ؛ محمد سرور : سياســـة الفاطميين ، ص ٣٠ - ٣١ .

(٣) سرور : النفوذ الفاطمى ، ص ٢٨ - ٢٩ ؛ سليمان مالكى : مرافـــق الحج ، ص ١٧٦ - ١٧٨ .

بها بألفين نفر . أما الغرباء والمجاورين فيقارب الخمسمائة ، وقد هاجر منها الكثيرون .(١)

ظلت الدعوة العباسية قائمة في مكة المكرمة ، حتى مات الأميرمحمد بن جعفر بن أبي هاشم سنة ٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م ، وهي نفس السنة التي توفي فيها الخليفة العباسي المقتدر .(٢) وقد كتب أبو المحاسن في هذا " فرح المسلمون وأهل مكة بموته ".(٣)

وعند ما توفي محمد بن جعفر بن أبي هاشم ،تولى الأمارة بعده إبنه قاسم بن محمد ، الذى استمر في الخطبة للعباسيين بمكة المكرمة ، ثم أعادها للفاطميين ، ومالبث أن أعاد الدعاء للعباسيين في سنة ٤٨٩هـ / ١٠٩٥م . بعد أن أرسل اليه الخليفة المستظهر وابنه المسترشد العباسي الخلع والأموال ،فضمنا بذلك استمرار الدعاء لهما .(٤)

ويذكر لنا المقريزي في كتابه (إتعاظ الحنفاء) أنه في سنة

---

(١) ناصري خسرو: سفرنامه ، ص ١٢٣ ؛ سرور: النفوذ الفاطمي ،ص٢٩ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٨ ،ص ١٧٣ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم، جـ ٥ ، ص ١٤٠ ؛ القلقشندى : صبح الاعشى ،جـ ٤ ، ص ٢٧١ .

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم ،جـ ٥ ،ص ١٤٠ .

(٤) سرور : النفوذ الفاطمي ، ص ٢٢

٥١٢هـ / ١١١٨م ذكر تجار من ميناء عيذاب على الساحل المصرى للبحر الأحمر ، أنه خرج عليهم قاسم بن محمد بن أبى هاشم أمير مكة فى مركب مهاجماً وقطع عليهم الطريق ، وأخذ جميع ما كان معهم. وعند ما وصلت الأخبار الى الوزير الفاطمى الأفضل بن بدر الجمالى ،غضب وأعد أسطولاً قاده بنفسه لتأديب أمير مكة قاسم بن محمد . ولما سمع أشراف مكة بالحملة التى أعدها الوزير الفاطمى ، أرسلوا رسولاً منهم لاستطلاع الأمر . فلما وصل هذا الرسول ساحل مصر، لم يهتم الفاطميون بقدومه ، وراعه ما رآه من تجهيزهم للأساطيل والعساكر ، التى يعتزمون تأديبهم بها، فتعهد لهم الرسول بإعادة الأموال والبضائع التى أخذت من التجار. وبذلك لم تسافر هذه الحملة الى أمير مكة قاسم بن محمد لتأديبه .(١) وهكذا استمرت الفتن والاضطرابات فى عهده لعجزه عن إقرار الأمن ،ولإهماله اصلاح شئون أمارته .(٢)

وعند ما توفى قاسم بن محمد سنة ٥١٨هـ/ ١١٢٤م ، تولى الأماره بعده ابنه أبو فليته ، الذى ابتدأ عهده بالخطبة للعباسيين ،وسار فى الناس أحسن سيرة ، فقابلوه بالثناء والوفاء . واستمر عهد ولايته في طمأنينة

---

(١) المقريزى : إتعاظ الحنفاء ،جـ ٣ ، ص ٥٨-٥٩
(٢) ابن خلدون : كتاب العبر ، جـ ٤ ،ص ١٠٤ ؛ القلقشندى: صبح الأعشى ، جـ ٤ ، ص ٢٧١ ؛ سرور: النفوذ الفاطمى ،ص ٢٣ .

واستقرار ، الى أن توفى سنة ٥٢٧هـ/ ١١٣٢م [١] . وخلفه ابنه هاشم بن أبى فليته ، بعد أن تمكن من التغلب على إخوانه ، والإستئثار دونهم بالحكم ، واستمرت الدعوة للعباسيين [٢] في عهد هاشم ، الا أنه تذبذب فى سنة ٥٣٧هـ/١١٤٢م بين الدعاء للخليفة الفاطمى الحافظ والدعاء للخليفة المستنجد بالله العباسى ، على أن الدعوة لبنى العباس بقيت مستمرة طوال عهد هاشم وظل يدعو للخليفة العباسى المقتفى حتى آخر أيام ولايته [٣] .

وبعد وفاة هاشم تولى أمارة مكة المكرمة إبنه القاسم سنة ٥٤٩هـ/ ١١٥٤م . وقد تقرب قاسم بن هاشم من الفاطميين لأسباب أهمها كرهه للعباسيين ، واستمر على خلافه معهم عدة سنوات [٤] .

كان عمارة اليمنى من دعاة الفاطميين ، فلما قدم مكة المكرمة فى موسم سنة ٥٤٩هـ/ ١١٥٤م لأداء فريضة الحج ، أرسله أميرها القاسم

---

(١) ابن الاثير : الكامل، جـ٨، ص ٣١٤ ؛ ابن خلدون : كتاب العبر، جـ ٤، ص١٠٤ ؛ القلقشندى : صبح الاعشى ، جـ ٤ ، ص ٢٧١ ؛ سرور : سياسة الفاطميين ، ص ٣٢ .

(٢) ابن خلدون : كتاب العبر، جـ ٤ ، ص١٠٤ ؛ القلقشندى : صبح الاعشى، جـ٤ ، ص ٢٧١ .

(٣) سرور : النفوذ الفاطمى ، ص ٢٤ .

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ٢٥١ - ٢٥٢ ؛ ابن العماد : شذرات الذهب ، جـ ٤ ، ص ٢٣٤ - ٢٣٥ .

ابن هاشم فى سفارة الى الديار المصرية ، وحمله رسالة لتوثيق صلاته بالفاطميين ، فوصل الى مصر في شهر ربيع الأول من سنة ٥٥٠هـ/ ١١٥٥م.(١)

استقبل الخليفة الفاطمى الفائز بن الظافر عمارة اليمنى ، فى قصره يوم السلام على الخليفة ، وكان جالساً في صالة الذهب ومعه وزيره طلائع بن رزيك ، فأنشدهما عمارة قصيدة عصماء (٢) ، أظهر فيها إعجابه بما رآه من جلال الخلافة ، وعظمة الملك ، وأبهة السلطان . وأمتدح فيها الخليفة ووزيره ، ملمحاً الى الأغراض التى استهدفت قدومه مركز الخلافة كمبعوث لأمير مكة . وأقام عمارة اليمنى في مصر حتى شهر شوال سنة

---

(١) المقريزى : إتعاظ الحنفاء ، جـ ٣ ، ص ٢٢٤ - ٢٢٥.

(٢) انظر : ابن خلكان : وفيات الأعيان ، جـ ٣ ، ص ١٠٧ - ١٠٨ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ٢٥١ - ٢٥٢ ، وجاء فى مطلع القصيدة :

الحمد للعيش بعد العزم والهمم ... حمداً يقوم بما أولت من النعم

ورحن من كعبة البطحاء والحرم ... وفداً الى كعبة المعروف والكرم

حيث الخلافة مضروب سرادقها ... بين النقيضين من عفو ومن نقم

٥٥٠هـ/١١٥٥م[1] . عاد عمارة اليمنى الى مكة المكرمة ، بعد أن أعطاه والى قوص مائة إردب من القمح من مال الديوان ، فحملها عائداً بها ، كما كتب والى قوص لعمارة كتاباً آخر الى صاحب عدن يبرىء عمارة فيها من ثلاثة آلاف دينار ويسقطها عنه[2] ، ومن مكة المكرمة توجه عمارة الى زبيد.[3]

وفى سنة ٥٥١هـ/١١٥٦م عاد عمارة اليمنى من زبيد الى الحجاز مرة ثانية ، حيث أدى فريضة الحج ، فأوفده أمير الحرمين برسالة أخرى الى الوزير الفاطمى الصالح طلائع بن رزيك ، يعتذر فيها عن الأعمال التى ارتكبها جنده مع حجاج مصر والشام ، واعتدائهم عليهم وأخذ هم أموالهم.[4] ولما قدم عمارة اليمنى أرض مصر للمرة الثانية وطاب له المقام في بلاد وادى النيل ، استوطنها وبقى فيها حتى آخر أيامه .[5] وأصبح عمارة اليمنى

---

(١) ابن فهد : إتحاف الورى ،ورقة ٢٣٥ - ٢٣٦ ؛ حسن ابراهيم: تاريخ الاسلام ،جـ ٤ ،ص ٤٨٦ ؛ سرور : سياسة الفاطميين ،ص ٣٣ ؛ ذو النون المصرى : عمارة ،ص ٤٤-٤٥ .

(٢) المقريزى : إتعاظ الحنفاء ،جـ ٣ ، ص ٢٢٨ .

(٣) القلقشندى : صبح الاعشى ، جـ ٥ ، ص ٩ ؛ سرور : سياسة الفاطميين : ص ٢٥ .

(٤) ابن فهد : إتحاف الورى ،ورقة ٢٣٦ ؛ ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، جـ ٣ ص ١٠٩ ؛ سرور : النفوذ الفاطمى ، ص ٢٥ .

(٥) ابن العماد : شذرات الذهب ؛ جـ ٤ ، ص ٢٣٤- ٢٣٥ .

فى مصر من أشهر شعراء البلاط الفاطمى في عهد الفائز والعاضد . وبلغ من كثرة تشجيع الفاطميين له ، وإغداقهم المنح عليه ،أن أصبح من أنصارهم على الرغم من أنه كان سنياً شافعى المذهب .(١)

وتشير السفارتان هنا الى حرص أمراء مكة والمدينة على التقرب من الخلفاء الفاطميين ، واكتساب رضاهم ، ورغم المحاولات التى بذلهما الخلفاء العباسيون لإستمالة أمراء مكة والمدينة وصرفهم عن الخلافة الفاطمية الى مصر الا أنهم لم يتمكنوا من تحقيق غرضهم لأسباب عديدة منها أن أمراء مكة والمدينة ينتمون الى البيت العلوى ، أضف الى ذلك أنه لم يكن لدى أمراء مكة والمدينة المنورة القوة العسكرية التى تمكنهم من درء الأخطار عن بلاد الحجاز ، كما أن موارد تلك البلاد كانت لا تكفى لسد حاجة أهلها . لذلك رأوا من الخير لهم إكتساب صداقة الفاطميين والتقرب إليهم ، ماداموا يرعون حقوقهم فى الأمارة ويمدونهم بما يحتاجون إليه من الأموال والغلال .(٢)

أما عن نهاية النفوذ الفاطمى فى بلاد الحجاز ، فقد واكب إنهيار الخلافة الفاطمية وضعفها . وإنعكس هذا على أحوال بلاد الحجاز - قبل العصر الأيوبى - في إزدياد الاضطراب والفوضى والفتن بمكة المكرمة

---

(١) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام ، جـ ٤ ، ص ٤٨٦ .
(٢) سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ، ص ٣٥ - ٣٦ .

والمدينة المنورة . وكانت الخلافة العباسية أيضاً تمر بمرحلة من مراحل الضعف والانهيار مما أدى الى إزدياد حوادث النهب والسلب ، بعد أن توقفت إمدادات الأموال التي كانت تأتي من بغداد والقاهرة .(١)

وقد ذكر إبن الأثير أن أمير مكة قاسم بن هاشم لما سمع بقرب الحجاج من مكة المكرمة سنة ٥٥٦هـ/ ١١٦٠م ، هاجم المجاورين وأعيان أهل مكة ، وأخذ كثيراً من أموالهم ، وهرب من مكة خوفاً من أمير الحاج العراقي أرغش .(٢)

وفي نفس السنة (٥٥٦هـ/ ١١٦٠م) قدم زين الدين علي بن بكتكين ، صاحب جيش الموصل ومعه طائفة من العسكر حاجاً ، فوضع أمير الحاج العراقي على أمارة مكة بدلاً من قاسم عمه عيسى ، واستمر الحال هكذا حتى شهر رمضان سنة ٥٥٧هـ/ ١١٦١ .(٣) وفي ذلك الحين جمع قاسم جموعاً كثيرة من العربان ، بعد أن أغراهم بما لديه من أموال بمكة ، فمالوا اليه ، وساروا معه الى مكة . ولما علم عمه عيسى بذلك ترك مكة .

---

(١) ابن فهد : إتحاف الورى ، ورقة ٢٣٧ ؛ إبن ظهيرة : الجامع اللطيف ، ص ٣٠٨ - ٣٠٩ ؛ سليمان مالكي : مرافق الحج ، ص ١٧٤ - ١٧٦ .

(٢) ابن الاثير : الكامل ، جـ ١١ ، ص ٢٧٩ ؛ انظر أيضاً أبو الفدا : تاريخ ، جـ ٣ ، ص ٤١

(٣) الطبري : إتحاف فضلاء الزمن ، ورقة ١٧ ؛ إبن ظهيرة : الجامع اللطيف ص ٣٠٨ - ٣٠٩ .

وهكذا تمكن قاسم من دخول مكة ثانية سنة ٥٥٧هـ/ ١١٦١م وعاد أميراً عليها، ولكن لبضعة أيام إذ قتل بيد أتباعه انتقاماً منه لقتله أحد قوادهم، ودفن بالمعلاة بجوار أبيه فليته .(١) وقد بويع بعده عمه عيسى حيث إستقر الأمر له ، واستمر على الولاية في مكة حتى توفى سنة ٥٧٠هـ/ ١١٧٤م.(٢)

كانت الفوضى والاضطرابات سائدة في مكة المكرمة ،قبيل قيام الدولة الأيوبية . والدليل على ذلك أنه في خلال حكم عيسى بن فليتة على مكة المكرمة ، نازعه في الحكم أخيه مالك بن فليته ، وكان ذلك يوم عاشوراء ونتيجة لهذا النزاع حكم مالك مكة المكرمة نصف يوم فقط من سنة ٥٦٥هـ / ١١٦٩م . وفي ذلك اليوم حدث بينه وبين عسكر أخيه قتال حتى وقت الزوال ، حيث إنتهى بالصلح بينهما .(٣) وسافر بعد ذلك الأمير مالك الى بلاد الشام في نفس سنة (٥٦٥هـ/ ١١٦٩م) وبقي هناك. وأثناء ذلك كان السلطان صلاح الدين الأيوبي قد أبطل من الأذان "حيّ على خير العمل ، محمد وعلى خير البشر" . وأعتبر هذا التعديل أول وصمة دخلت على الدولة الفاطمية .(٤)

---

(١) ابن الأثير : الكامل ،جـ١١ ،ص ٢٧٩ .

(٢) ابن فهد : إتحاف الورى ،ورقة ٢٣٧ ؛ الفاسي : تحصيل المرام ، ورقة ٨٤ - ٨٥ ؛ ابن الأثير: الكامل ،جـ ١١ ،ص ٢٧٩ .

(٣) الفاسي : تحصيل المرام ،ورقة ٨٤-٨٥ ؛ العقد ،جـ١ ، ص ١٧٢-١٧٣ ؛ جـ ٦ ، ص ٤٦٥ - ٤٦٦ .

(٤) المقريزي : إتعاظ الحنفاء ،جـ ٣ ، ص ٣١٧ .

وفى سنة ٥٦٧هـ/ ١١٧١م وفى الوقت الذى كانت فيه إمرة مكة فى يد عيسى بن فليته ، كان صلاح الدين الأيوبى قد قضى على الخلافة الفاطمية فى مصر . وعادت مصر الى حظيرة الخلافة العباسية السنية من جديد . ومن الطبيعى أن يمتد نفوذ صلاح الدين الأيوبى الى مكة ، إثر نجاحه في مصر. وجاءت رسله الى مكة المكرمة سنة ٥٦٧هـ/ ١١٧١م لتأييد الدعاء للعباسيين [1] . وكانت هذه بداية جديدة لتاريخ الحجاز فى العصر الأيوبى .

---

(١) The Cambridge History of Islam, P.203 .
السباعى : تاريخ مكة ، جـ ١ ، ص ٢٠٩ .

الفصل الثاني

النفوذ الأيوبي في بلاد الحجاز

- حملة شمس الدين توران شاه الأيوبي على مكة المكرمة سنة ٥٦٩ هـ - ١١٧٣ م والاعتراف بالسيادة الاسمية لأخيه صلاح الدين.
- عدم تدخل الأيوبيين في الشئون الداخلية لبلاد الحجاز.
- حملة أرناط على سواحل بلاد الحجاز سنة ٥٧٧ - ٥٧٨ هـ - ١١٨١ - ١١٨٢ م
- ولاية مكثر بن عيسى وسك الدراهم باسم صلاح الدين الأيوبي
- حملة سيف الإسلام طغتكين بن أيوب على مكة المكرمة ونتائجها
- بلاد الحجاز من سنة ٥٨١ هـ/١١٨٥ م حتى ٦١٩ هـ/١٢٢٢ م.
- حملة الملك المسعود يوسف بن الكامل الأيوبي على مكة المكرمة سنة ٦١٩ هـ - ١٢٢٢ م ونتائجها.
- سفارة طغتكين الأيوبي إلى مكة المكرمة والخطبة للسلطان الكامل الأيوبي.
- بلاد الحجاز بين آل رسول والأيوبيين ٦٢٧ هـ/٦٤٧ هـ ١٢٢٩ م/ ١٢٤٩ م
- نهاية النفوذ الأيوبي في بلاد الحجاز.

منذ اللحظة الأولى التى أقام الأيوبيون فيها ملكاً لهم فى مصر تطلعوا الى بلاد الحجاز نظراً لمكانتها فى نفوس المسلمين حيث يوجد فيها الحرمين الشريفين في مكة المكرمة والمدينة المنورة ، ورغبتهم في أن يكونوا حماة للحرمين الشريفين ، وأن يسودوا بهذا العالم الإسلامى . وأراد صلاح الدين أيضاً تحقيق حلمه في السيطرة على طريق التجارة في البحر الأحمر لأهمية ذلك فى حروبه ضد الصليبيين في بلاد الشام .

وقد لاحظنا في الفصل السابق أن الأحوال في بلاد الحجاز لم تكن مستقرة في أواخر العصر الفاطمى لضعف ولاة مكة وتذبذبهم بين الخلافتين العباسية السنية في بغداد ، والفاطمية الشيعية في مصر ، ولاعتيادهم الدعوة الى الخليفة الذى يبذل عطاء أكثر من الأموال . لذلك كانت الأحوال في بلاد الحجاز تعمها الفوضى والإضطرابات ، مما سنح للأيوبيين أن يبسطوا نفوذهم على بلاد الحجاز .

ظهر صلاح الدين الأيوبى على مسرح الأحداث السياسية في مصر قائداً سياسياً محنكاً مما جعله يعقد العزم على تأسيس دولة أيوبية خارج مصر وتحمل لقب الأيوبيين وذلك لخوفه من سيده السلطان نور الدين محمود ، وأرسل صلاح الدين أخاه شمس الدولة توران شاه بن أيوب الى بلاد النوبة سنة ٥٦٨هـ/١١٧٢م ، ولكنه لم يجد بها موارد مالية كبيرة تبرر بقاؤه فيها [1] . فأنتقل تفكير صلاح الدين الى بلاد اليمن لما سمعه

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، جـ ١١ ، ص ٣٩٦ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ٢٣٧ ؛ المقريزى : السلوك ، جـ ١ ، ص ٥٢ .

عنها من كثرة خيراتها وأموالها ، وليجعل منها مقراً لحكم بني أيوب. كما أن الأهمية التجارية للبحر الأحمر، لم تكن تخفى على صلاح الدين بعد أن أصبحت عدن مركزاً هاماً من مراكز التجارة في البحر الأحمر (١) . وعزم صلاح الدين على إمتلاك هذه البلاد ، فأعد حملة عسكرية مجهزة بالسلاح، وجعل على رأسها أخيه شمس الدولة توران شاه (٢) . سار توران شاه في طريق الحجاز ماراً بمكة المكرمة ، وطاف بالكعبة ودعا الله بالتوفيق ،ورحب به أمير مكة عيسى بن فليتة ودخل تحت طاعته ، وكان ذلك في سنة ٥٦٩هـ/ ١١٧٣م (٣) . ومنذ ذلك الوقت أخذت منابر مكة تخطب للخلفاء العباسيين ، وللسلطان صلاح الدين وأمير مكة عيسى بن فليتة ، وكان هذا بداية لنفوذ الايوبيين في بلاد الحجاز (٤) .

وحدث في بداية النفوذ الأيوبي في بلاد الحجاز نزاع بين أولاد عيسى ابن فليتة وهما داود ومكثر . وقد حاول الأيوبيون الإصلاح بينهما ، غير أن تدخل العباسيين في حلقة النزاع ، أدى الى تفاقم الصراع ، مما سبب أخطاراً كثيرة للحجاز ، وخاصة في مكة المكرمة.

---

(١) حسنين ربيع : البحر الاحمر في العصر الأيوبي ،ندوة تاريخ البحر الاحمر بجامعة عين شمس سنة ١٩٧٩ ، ص ٢ - ٣.
(٢) ابن الأثير : الكامل ،ج ١١ ، ص ٣٩٦.
(٣) ابن شداد : النوادر السلطانية ،ص ٤٦ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ،ص ٢٤٠-٢٤١ ؛ المقريزي : السلوك ،ج١ ،ص ٥٢ ، مجهول المؤلف : تاريخ اليمن ،ص ١.
(٤) الفاسي : تحصيل المرام ،ورقة ٨٨-٨٩.

ففى أوائل شهر شعبان سنة ٥٧٠هـ/ ١١٧٤م تولى أمر مكة المكرمة داود بن عيسى بن فليتة بعد أبيه بعهد منه ، فأحسن السيرة وعدل في الرعية . فلما كانت ليلة أول رجب من سنة ٥٧١هـ/١١٧٥م أخرجه أخوه مكثر ليلاً من مكة المكرمة . وساعد مكثر في هجومه على أخيه جماعة من الخارجين على داود بتحريض من العباسيين ، ونادوا بمكثر أميراً على مكة المكرمة . ولجأ داود الى وادى نخلة [1] ، ثم لم يلبث أن عاد الى مكة المكرمة فى نصف شعبان من نفس السنة (٥٧١هـ/١١٧٥م) وتم الصلح بينه وبين أخيه بوساطة شمس الدولة بن أيوب ، أخو السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ، أثناء قدومه من بلاد اليمن في طريقه الى بلاد الشام [2] . غير أن صلاح الدين الأيوبى لم يتدخل في شئون الحجاز الداخلية بصورة مباشرة أو غير مباشرة ،بل اكتفى باجراءات تحقق الأمن والعدالة للسكان المحليين ،والحجاج القادمين ، دون أن يحاول تغيير نظام الحكم ، الذى كانت تتولاه أسرة الهواشم في الحرمين [3] .

---

(١) وادى نخلة : موضع بالحجاز قريب من مكة فيه نخل وكروم ،انظر: ياقوت الحموى: معجم البلدان ،جـ ٥ ،ص ٢٧٧ .

(٢) ابن فهد : إتحاف الورى ،ورقة ٢٣٩ - ٢٤٠ ؛ الطبرى: الأرج المسكى ، ورقة ٢٦٣-٢٦٤ ؛ الفاسى : تحصيل المرام ،ورقة ٨ العقد الثمين ،جـ ٤ ،ص ٣٥٤ - ٣٥٥ ؛ السباعى : تاريخ مكة جـ ١ ص ٢٢٢ .

(٣) على بن حسين السليمان : العلاقات الحجازية المصرية ، ص ٨ - ٩ .

وما كاد يتولى الأمير مكثر أمارة مكة المكرمة حتى شعر بحاجته الى تثبيت مركزه في الحكم ، ليتحاشى إستبداد بغداد ، وخاصة أن بغداد أخذت تمد نفوذها الى شئون الحكم ، اذ أنها عملت على إقصاء من لا ترغب فيه لأمارة بلاد الحجاز ، وذلك بتقريب بعض بني عمومة أولاد عيسى ابن فليتة من الحكم . فلما علم مكثر بنوايا بغداد عمد الى شراء الأسلحة وتجنيد الرجال ، وبنى على جبل أبى قبيس قلعة ، لتكون له حصناً اذا فكر أمير الحاج العراقي في مناوشته أوعزله ، وظل مع ذلك يخطب للعباسيين والأيوبيين .(١) وعندما علم الخليفة العباسي في بغداد بتحصيناته إعتبر ذلك تحدياً منه للخليفة ، فكلف الخليفة أمير الحاج العراقى طاشتكين أخو صلاح الدين الأيوبى فى ذى الحجة سنة ٥٧١هـ ١١٧٥م بأن يعزل مكثر أ عن أمارة مكة المكرمة ، وأن يهدم حصنه ، وجهزه بعسكر كثير وسلاح وعدد من المنجنيقات والنفاطين وغير ذلك .(٢)

ولما إنقض الحج من سنة ٥٧١هـ/ ١١٧٥م ، اشتبك أمير الحاج العراقي

---

(١) ابن فهد : اتحاف الورى ، ورقة ٢٤٢ ؛ السباعى : تاريخ مكة ، جـ١ ، ص ٢٢٢ ؛ المالكى : مرافق الحج ، ص ١٧٨ - ١٨٠ .

(٢) ابن فهد : اتحاف الورى ، ورقة ٢٣٩ - ٢٤٠ ؛ الطبرى : الارج المسكى ورقة ٢٦٣ - ٢٦٤ ؛ ابن الأثير : الكامل ، جـ ١١ ، ص ٤٣٢ ؛ الفاسى : العقد الثمين ، جـ ٢ ، ص ١٨٨ - ١٨٩ ؛ ابو الفدا : تاريخ أبو الفدا ، جـ ٣ ، ص ٦٢ .

طاشتكين بقتال عنيف مع مكثر ، وقتل الكثير من الفريقين ، فهرب أمير مكة مكثر، وتحصن في حصنه على جبل أبي قبيس [١] . وقد عانى أهالي مكة المكرمة الكثير من هذا القتال إذ أن الأمير مكثر نهب الحجاج وأخذ أموالهم ، وأموال التجار المقيمين في مكة ، وأحرق دوراً كثيرة فيها . واستطاع طاشتكين إخراجه من الحصن فهرب مكثر عن مكة ،وعهد طاشتكين الى داود أخي مكثر بتولي أمارة مكة المكرمة بعده [٢] .

عندما تولى داود أمر مكة المكرمة فى نهاية سنة ٥٧١هـ/ ١١٧٥م أسقط جميع المكوس التى فرضها مكثر ،ورحل الحجاج بعد أن أخذوا المواثيق والعهود على داود ،أن لا يغير شيئاً مما شرط عليه من إسقاط المكوس عنهم [٣] .

وتذكر بعض المصادر التاريخية أن أمارة مكة المكرمة قد عهد بها للأمير قاسم بن مهنى الحسينى أمير المدينة المنورة ،قبل أن يتولاها الأمير

---

(١) ابن ظهيرة : الجامع اللطيف ،ص ٣٠٨- ٣٠٩ ؛ ابن الأثير: الكامل ج ١١ ،ص ٤٣٢ ؛ ابو شامة : الروضتين ،ج ٢ ،ص ١٩٥ - ١٩٦ ؛ القلقشندى : صبح الاعشى ،ج ٤ ،ص ٢٣١ .

(٢) ابن فهد : اتحاف الورى ،ورقة ٢٣٩ - ٢٤٠ ؛ الطبرى :الارج المسكى ورقة ٢٤٤ ؛ سبط ابن الجوزى: مرآة الزمان ،ج ٨ ، ص ٢٤٨ .

(٣) ابن فهد : اتحاف الورى ، ورقة ٢٣٩-٢٤٠ ؛ الطبرى: اتحاف فضلاء الزمن ،ورقة ١٧ ؛ الفاسى : العقد ،ج ٤ ،ص ٣٥٤ - ٣٥٦ ؛ السليمان : العلاقات الحجازية ، ص ١١٠-١١١ .

داود بن عيسى ، وذلك عندما جاء الأمير قاسم مع طاشتكين فولاه إمرة مكة المكرمة وكان ذلك في شهر الحج سنة ٥٧١هـ/١١٧٥م، ثم وجد أنه لا يستطيع القيام بأمور مكة فاعتزل بعد أن حكمها ثلاثة أيام فقط .[١] عندها ولى أمير الحاج طاشتكين داود بن عيسى[٢] إمارة مكة - كما علمنا سابقاً - ولم تعلم ولايته هذه الى متى إستمرت ، غير أن المصادر التاريخية ذكرت أن مكثراً وأخاه ظلا يتداولان حكم مكة المكرمة بينهما ، رغم عداء العباسيين لهما ، وكانا ينفردان بشئونهما الداخلية ، ثم استأثر مكثر بحكم مكة عشر سنين متتالية ، وكان آخرها سنة ٥٩٧هـ/١٢٠٠م[٣] .

ووقف الأيوبيون بشجاعة وأمانة ضد توغل الصليبيين في البحر الأحمر نظراً لأهميته بإعتباره الطريق البحرى الموصل الى بلاد الحجاز حيث الحرمين الشريفين فى مكة المكرمة والمدينة المنورة .[٤]

ففي سنة ٥٧٧هـ/١١٨١م تجرأ أحد أمراء الصليبيين واسمه في المصادر العربية أرناط (رينودى شاتيون في المصادر الأوربية) صاحب

---

(١) ابن ظهيرة : الجامع اللطيف ، ص٣٠٨-٣٠٩ ؛ الفاسى : العقد ، جـ٧ ، ص ٣١-٣٢ .

(٢) الفاسى : تحصيل المرام ، ورقة ٨٤-٨٥ ؛ ابن الاثير: الكامل جـ١١ ، ص٤٣٢

(٣) الفاسى : تحصيل المرام ، ورقة ٨٤-٨٥ ؛ الفسانى : المسجد المسبوك ، ورقة٢٢٦ ؛ ابن ظهيرة: الجامع اللطيف، ص٣٠٨-٣٠٩ ؛ ابن زينى دحلان : خلاصة الكلام ، ص ٢٠-٢١ .

(٤) حسنين ربيع : البحر الاحمر فى العصر الأيوبى ، ص ١٠-

أمارك الكرك شرق البحر الميت على القيام بحملة ضد المسلمين، وكان أرناط شاباً مغامراً متحمساً لتحقيق أغراض الصليبيين في الاحتفاظ بالأمارات اللاتينية ، والجهاد ضد المسلمين . وكان من طبعه الغدر وعدم الوفاء بالعهد ، واعتاد مهاجمة المسلمين وقوافل التجار ، ونهب أموالهم ،وأسر رجالهم ونسائهم . بدأ أرناط في تنفيذ حملته في صيف سنة ٥٧٧هـ/١١٨١م، التى هدفت الى تحقيق سيادة الصليبيين على البحر الأحمر ،وتحويل تجارة المسلمين الى خليج العقبة والموانىء الصليبية بالشام ، كما هدفت الى طعن الإسلام فى قلبه ، بغزو الحرمين الشريفين ، والإستيلاء على طريق الحج البحرى الى بلاد الحجاز ولكنه بهذه الحملة تناسى أمر الهدنة المعقودة بين صلاح الدين ومملكة بيت المقدس[1] .

وكان أرناط قد أعد أخشاباً من عسقلان ، وحملها على الجمال حتى ميناء أيلة على خليج العقبة . وبنى بها اسطولاً مكوناً من خمس سفن كبيرة وعدد آخر من السفن الصغيرة ، عليها قرابة ألف فارس ، وأبحر فى مياه البحر الأحمر بهدف الاستيلاء على مكة المكرمة والمدينة المنورة[2] . وكانت

---

(١) عاشور : الأيوبيون والمماليك ،ص ٦٣-٦٤ ؛ الحركة الصليبية جـ ٢ ،ص ٧٧٠ ؛ حسنين ربيع : البحر الأحمر فى العصر الأيوبى ،ص ٤-٥ ؛ عبد المنعم ماجد : الناصر صلاح الدين ،ص١٠٨-١١٠ ؛ سعاد ماهر: البحرية الإسلامية ، ص ١٠٥ - ١٠٧ ؛ السليمان : النشاط التجارى ص ٣٢-٣٣ ؛ رونسيمان: الحروب الصليبية ،جـ ٢ ،ص ٦٩٦ .

(٢) القوصي : تجارة مصر ،ص ١٥٣-١٥٥ ،محمود رزق محمود :العلاقات بين أرناط أمير حصن الكرك وصلاح الدين ص ١٠٩-١١٠ ؛ عزيز سوريال : العلاقات بين الشرق والغرب ص٦٤-٦٥ ؛
Kammerer: La Mer Rouge, P. 23

محاولة أرناط هذه ، أول محاولة إعتداء صليبية في مياه البحر الأحمر .

فشلت الحملة الأولى التي قام بها أرناط في البحر الأحمر ، بعد أن توقفت قواته عند واحة تيماء [١] ، بسبب عدم تحملهم شدة الحرارة وقلة الماء وكذلك بسبب إسراع عز الدين فروخشاه إبن أخي صلاح الدين ، ونائبه على دمشق الى القيام بحصار أعمال الكرك ونهبها ، حتى أرغم أرناط بذلك على العودة الى إمارته ، للدفاع عنها ، بعد أن نهب قافلة إسلامية كبيرة ، كانت متجهة من دمشق الى مكة ، وسلب منها ثروة ضخمة [٢] .

ولم تقف الأمور بأرناط عند هذا الحد ، بل عقد العزم على ضرب المسلمين في أعز مقدساتهم . ففي نهاية سنة ٥٧٨هـ/١١٨٢م أعد أرناط حملة ثانية ، وتحول نشاطه المعادي هذه المرة الى قلب البحر الأحمر نفسه . شرع أرناط في بناء سفن حملت أجزاؤها مفككة على ظهور الجمال حتى خليج العقبة ، حيث ركب أجزاؤها وشحنها بالرجال ومعدات القتال

---

(١) تيماء : واحة لها أهميتها لوقوعها في منتصف الطريق بين الأردن والمدينة المنورة على طريق حاج الشام ودمشق ، انظر ياقوت الحموي : معجم البلدان ، جـ٢ ، ص ٦٧ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ٢ ، ص ١٠١-١٠٢ ؛ المقريزي : السلوك جـ١ ، ص ٧٢ ؛ عاشور : الحركة الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٧٧٠ ؛ العريني : مصر في عصر الأيوبيين ، ص ٥٧-٦٨ ؛ أحمد رمضان : شبه جزيرة سيناء ص ١١٢

وبعد أن أتم أرناط استعداده سير السفن الصليبية فى البحر الأحمر، وهاجم بنفسه جزيرة أيلة، بسفينتين حربيتين ثم إنطلق ببقية السفن في البحر الأحمر، ملتزماً في سيره الساحل الأفريقي للبحر الأحمر، وبدأت غارات الصليبيين على الموانئ الواقعة على البحر الأحمر، مما أثار الرعب والدهشة في نفوس سكانها، لعدم رؤيتهم سفناً فرنجية قبل ذلك في مياه البحر، وهذا ما يفسره قول ابن الأثير عن قوات أرناط أنهم: بغتوا الناس في بلادهم على حين غفلة منهم، فانهم لم يعهدوا بهذا البحر فرنجياً قط ولا تاجراً ولا محارباً [١].

أغار أسطول أرناط على ميناء عيذاب[٢] المواجه لميناء جدة، ونهب الصليبيون بضعة سفن تجارية، قدمت من جدة وعدن والهند[٣]. وقد أورد

---

(١) ابن الاثير: الكامل، جـ ١١، ص٤٩٠؛ ابن واصل: مفرج الكروب، جـ ٢، ص١٢٧-١٢٩؛ ابو شامة: الروضتين، جـ ٢، ص ٣٥، ابن ايبك: كنز الدرر، جـ٧، ص ٧١-٧٢، ابوالفداء: تاريخ ابو الفدا، جـ ٣، ص٦٨-٦٩ عاشور: الحركة الصليبية، جـ ٢، ص ٧٨٦؛ حسنين ربيع: البحر الأحمر ص٤-٥؛ العريني: مصرفي عصر الأيوبيين، ص ٦٩-٧٠؛ رونسيمان: الحروب الصليبية، جـ٢، ص٦٩٦؛ محمود رزق محمد: العلاقات بين أرناط، ص ١٠٩-١١٠.

(٢) عيذاب: بليدة على ضفة بحر القلزم (البحر الأحمر) وهى مرسى المراكب التى تقدم من عدن الى الصعيدة، انظر ياقوت الحموى: معجم البلدان، جـ ٤، ص ١٧١؛ احمد دراج: عيذاب مقال بمجلة نهضة أفريقية يوليو أغسطس ١٩٥٨، ص ٥٨

(٣) ابن واصل: مفرج الكروب، جـ ٢، ص١٢٧-١٢٩؛ عاشور: الحركة الصليبية جـ٢، ص ٧٨٦؛ احمد دراج: عيذاب، ص ٥٨؛ رونسيمان: الحركة الصليبية جـ ٢ ص ٦٩٦؛
Hindly, Saladin, P.100

ابن جبير أن الصليبيين استولوا على مركبين لتجار من اليمن ، وأحرقوا أطعمة كثيرة على ساحل عيذاب ، كانت معدة لميرة مكة والمدينة .[1]

إجتازت سفن أرناط البحر الأحمر من عيذاب الى ساحل بلاد الحجاز ، فأشعلوا الحرائق في السفن الراسية بالحوراء وينبع مينائى المدينة المنورة .[2]

وذكر ابن الأثير وابن أيبك الدوادارى : أن الصليبيين نزلوا على ساحل الحوراء قرب ينبع ، حيث أغاروا على القوافل ، ثم أرشدهم بعض الخونة الى الطريق الذى يؤدى الى داخل البلاد[3] . وأصبح الصليبيون على مسيرة يوم واحد من المدينة النبوية ، حتى أنهم عزموا على دخول مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم . ونبش قبره عليه الصلاة والسلام ، وإخراجه من الضريح المقدس ، ونقل جسده الشريف الى بلادهم ، ودفنه

---

(١) ابن جبير : الرحلة ، ص ٣١ - ٣٢ ؛ أنظر أيضاً المقريزى : السلوك جـ ١ ، ص ٧٨ - ٧٩ .

(٢) رونسيمان : الحروب الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٦٩٦ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ، جـ ١١ ، ص ٤٩٠ ؛ إبن أيبك : كنز الدرر ، جـ ٧ ، ص ٧١ - ٧٢ .

عندهم ، ثم لا يمكنوا المسلمين من زيارته بعد ذلك الا بجعل.[1]

وما كادت هذه الأخبار تصل صلاح الدين الأيوبى ، وهو في بلاد الشام حتى قام على الفور بإرسال أخيه ونائبه في حكم مصر العادل سيف الدين ، يأمره بتجهيز أسطول بقيادة الأمير حسام الدين لؤلؤ الحاجب ، يفاجىء به مؤخرة العدو الصليبى في البحر الأحمر .

أعد الحاجب حسام الدين لؤلؤ السفن في القلزم (السويس) بعد أن حملت أجزاؤها مفككة على الجمال حيث تم تركيبها ، ونزلت السفن الإسلامية في البحر الأحمر ، وقد قسم حسام الدين لؤلؤ اسطوله الى قسمين : القسم الأول - منه سار الى قلعة أيلة ، حيث ظفر بمراكب للصليبيين ، وأسر من كان فيها[2] . أما القسم الثاني ، فقد أسرع بمطاردة

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ٢ ، ص ١٢٧-١٢٩ ؛ المقريزى : السلوك جـ١ ، ص ٧٨-٧٩ ؛ ابن جبير : الرحلة ص ٣١-٣٢ ؛ سعاد ماهر : البحرية الإسلامية ، ص ١٠٥-١٠٧ ؛ عاشور : الحركة الصليبية ، جـ٢ ق ص ٢٨٦ ؛ حسنين ربيع : البحر الأحمر ، ص ٤-٧ ، محمود رزق : العلاقات بين أرناط ، ص ١٠٩-١١٠ ؛ عزيز سوريال عطية : العلاقات بين الشرق ، ص ٦٤-٦٥ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ٢ ، ص ١٢٧-١٢٩ ؛ ابن الأثير : الكامل ، جـ ١١ ، ص ٤٩٠ ؛ المقريزى : السلوك ، جـ ١ ، ص ٧٨-٧٩ ؛ أبوشامة : الروضتين ، جـ ٢ ، ص ٣٥ ؛ حسنين ربيع ؛ البحر الأحمر ، ص ٦-٧ ؛ القوصى : تجارة البحر الأحمر ، ص ١٥٥-١٥٦ .

السفن الصليبية ،حتى تمكن منها في عيذاب ، وأطلق سراح المأسورين من المسلمين ، ورد عليهم ما سلب منهم ، ولم يجد أحداً من الصليبيين هناك. ثم رجع حسام الدين لؤلؤ الى رابغ ، وأدرك بعض الصليبيين معتصمين بساحل الحوراء على شاطئ الحجاز . ويبدو أن الصليبيين أخذوا على حين غرة ، فترك بعضهم أماكنهم ولاذوا بالجبال . وأطلق المسلمون سراح المأسورين من التجار الصليبيين . ثم صعد حسام الدين لؤلؤ ورجاله بحر الحجاز ،وتعقبوا المنهزمين ، وطاردوا الصليبيين بين الجبال ، وكانوا على مسافة يوم واحد من المدينة المنورة . وكان عدد الصليبيين ثلثمائة ، فقبض عليهم حسام الدين وقيدهم . وكان موسم الحج قد قرب ، فأرسل حسام الدين لؤلؤ أسيرين من الصليبيين الى منى ، حيث نحرهما هناك كما تنحر البدن التي تساق هديا الى الكعبة . وعاد الجيش الأيوبي ببقية الأسرى الى مصر (١) ، وأمر السلطان صلاح الدين الأيوبي بقتلهم ، ليكونوا عبرة لكل من يتجرأ بالإعتداء على حرم الله

---

(١) ابن الأثير : الكامل ،جـ ١١ ،ص ٤٩٠ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب جـ ٢ ،ص ١٢٧ - ١٢٩ ؛ أبو شامة : الروضتين ، جـ ٢ ،ص ٣٥ ؛ ابن أيبك : كنز الدرر ، جـ ٧ ، ص ٧١-٧٢ ؛ ابن جبير : الرحلة ص ٣١ - ٣٢ ؛ حسنين ربيع : البحر الاحمر ،ص ٧- ٨
Hindly, Saladin, P.100

وحـــرم الرسول صلى الله عليه وسلم ، وتم قتلهم بعد إستعراضهم في شــوارع الإسكندريـة في أوائل ذى الحجة سنة ٥٧٨هـ/ أبريل ١١٨٢م، وهكـــذا عمل صلاح الدين على حمايـة البحر الأحمر وبلاد الحجاز من الخطر الصليبى كما عمل على أن يظل هذا البحر إسلامياً خالصاً ، وأن تظل تجارته في أيـدى التجار المسلمين دون سواهم [١].

وخلال حكم مكثر بن عيسى فى مكة ، سـير السلطان صلاح الديـن أخاه سيف الاسلام طغتكين الى اليمن فى الفى فارس ، وخمسمائة راجـل وفوض اليه أمرها . وفى مسيرته مر طغتكين بمكة المكرمة [٢] ، ودخلهـــا في رمضان سنة ٥٨١هـ/ ١١٨٥م ثم توجه منها الى اليمن ، ولكنه ما لبـث أن عاد الى مكة المكرمة فى نفس السنة لأداء فريضة الحج [٣] . وقد منـع سيف الاسلام طغتكـين الأذان فـي الحرم بقـــول

---

(١) حسنين ربيع : البحر الأحمر فى العصر الأيوبى ، ص٨

(٢) حسنين ربيع: البحر الاحمر فى العصر الأيوبى ، ص ٣-٤ .

(٣) ابن فهد : اتحاف الورى ، ورقة ٢٤٣ ، الطبرى : الارج المكى : ورقـة ٢٤٤ ، الخزرجى العسجد المسبوك ، ورقة ١٦٥ ، يحيى بن الحسـين غاية الأمانى ، جـ٢ ، ص ٣٢٨ .

"" حي على خير العمل ""[1] ، وقتل جماعة من العبيد الذين كانوا يفسدون في مكة المكرمة ، وهرب منه أمير مكة مكثر بن عيسى الى قلعة بأبي قبيس بعد أن أغلق باب الكعبة المشرفة .[2]

وكان الشريف مكثر يأخذ المكس من الحجاج في البحر عن طريق عيذاب وجدة[3] . ويفهم مما كتبه ابن جبير ان المكوس التى كانت تؤخذ من الحجاج كانت مورد الأمارة الرئيسية ، فلم يكن هناك بد من تحصيلها ولو بالعنف . ولم يستطع أمراء مكة التنازل عن المكوس ، الا عندما ضمن صلاح الدين لهم التعويض عنها بأموال وسلع فى سنة ٥٧٢هـ/١١٧٦م[4] . فلما لم يكف الشريف مكثر عن ظلمه رغم التعويض ، سارع طغتكين الى تأديبه باسم صلاح الدين .[5]

---

(١) الفاسي : شفاء الغرام ، جـ ٢ ، ص ١٩٨ - ١٩٩ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ ٦ ، ص ١٠٣

(٢) الطبرى : الارج المسكى ، ورقة ٢٤٤ ؛ سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان، جـ ٨ ، ص ٢٤٨ .

(٣) الفاسي : تحصيل المرام ، ورقة ٨٨-٨٩ ؛ الجزيرى : درر الفوائد ، ص ٢٦٤ - ٢٦٥ ؛ ابن زينى دحلان : خلاصة الكلام ، ص ٢٠ - ٢١ .

(٤) ابن جبير : الرحلة ، ص ٤٨-٤٩ ؛ السليمان : العلاقات الحجازية ص ٨- ١١ .

(٥) ابن جبير : الرحلة ، ص ١١٠ - ١١١ .

ومنذ سنة ٥٨١هـ / ١١٨٥م أخذ يخطب على منابر مكة المكرمة للخليفة الناصر العباسي ، ثم لمكثر بن عيسى ، وللسلطان صلاح الدين ابن أيوب[(١)] ، وبالإضافة الى ذلك فقد أمر سيف الاسلام طغتكين بضرب الدراهم والدنانير في مكة المكرمة باسم أخيه صلاح الدين ، ثم توجه سيف الإسلام بجنوده الى اليمن[(٢)] .

وفي سنة ٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م آلت أمارة مكة المكرمة الى أسرة جديدة هي أسرة قتادة . ويرجع قيام أسرة قتادة في أمارة مكة المكرمة الى جهود الشريف أبي عزيز قتادة بن إدريس - صاحب ينبع - الذى نجح فى تأسيس الحكم لأسرته ، بعد أن إنتزع أمارة مكة المكرمة من مكثر سنة ٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م . وتمكن مكثر من الهرب الى وادى نخلة ، حيث توفى هناك سنة ٥٩٩هـ / ١٢٠٢م[(٣)] .

---

(١) ابن فهد : إتحاف الورى ، ورقة ٢٤٢-٢٤٤ ؛ الفاسى : تحصيل المرام ، ورقة ٨٨-٨٩ .

(٢) الطبرى : الأرج المسكى ، ورقة ٢٤٤ ، الطبرى : إتحاف فضلا الزمن ورقة ١٨-١٩ ، الجزيرى : درر الفوائد ، ص ٢٦٤-٢٦٥ .

(٣) ابن فهد : إتحاف الورى ، ورقة ٢٤٥ ، الطبرى : الأرج المسكى ، ورقة ٢٦٣- ٢٦٤ ، الفاسى : شفاء الغرام ، جـ ٢ ، ص ١٩٨ - ١٩٩ ، يحي بن الحسين : غاية الأمانى ، جـ ١ ، صفحة ٤١٢ - ٤١٣ .

وقد وطد أبي عزيز الحكم لأسرته في مكة ، بعد تنافس شديد بينه وبين شريف المدينة المنورة سالم بن قاسم الحسيني سنة (٦٠١هـ/ ١٢٠٤م)[1] إذ أن أبا عزيز قتادة حاصر صاحب المدينة المنورة ، ثم اشتبك الفريقان بذي الحليفة[2] وانهزم أبوعزيز قتادة وأسر سالم سليمان بن عبد المحسن التميمي الداري وزير قتادة ، ولحق شريف المدينة سالم بن قاسم بأبي عزيز الى مكة المكرمة فحاصره فيها ، كحصاره له في المدينة . فلجأ أبوعزيز قتادة الى جند سالم فأستمالهم اليه فخالفوه . فلما علم سالم بذلك عاد الى المدينة المنورة . لكن قتادة سار مرة ثانية الى المدينة المنورة في نفس سنة ٦٠١هـ/ ١٢٠٤م ، فتصدى له صاحب المدينة المنورة سالم بن قاسم ، وضرب أبو عزيز قتادة حصاراً على المدينة استمر أياماً ، بيد أنه لم يستطع فتحها فعاد الى مكة المكرمة مهزوماً .[3]

---

(١) الطبري : إتحاف فضلاء الزمن ، ورقة ١٩-٢٠ ؛ ابن الاثير : الكامل ، جـ١٢ ، ص ٢٠٥ ؛ أبوالفدا : تاريخ أبو الفدا ، جـ٣ ، ص ١١٢ ؛ ابن زيني دحلان : خلاصة الكلام ، ص ٢٢-٢٣ .

(٢) ذي الحليفة : قرية بينها وبين المدينة المنورة ستة أو سبعة أميال ، ومنها ميقات أهل المدينة . ياقوت الحموي : معجم البلدان ، جـ٢ ، ص ٢٩٥ - ٢٩٦ ؛ عاتق البلادي : معجم بلاد الحجاز ، جـ٣ ، ص ٤٨ .

(٣) ابن فهد : إتحاف الورى ، ورقة ٢٤٦ ؛ السليمان : العلاقات الحجازية ، ص ١١-١٢ .

وأثناء ولاية الأمير قتادة كثرت حوادث النزاع بين أهل مكة المكرمة والحجاج العراقيين ، وعلى سبيل المثال حدث سنة ٦٠٧هـ/١٢١٠م - وقعة بين حجاج العراق ، وبين أهل مكة المكرمة بمنى ، قتل فيها عبد للشريف قتادة إسمه بلال ، فسميت تلك السنة بسنة بلال (١). ويبدو أن بغداد لم يرضها قيام قتادة بالحكم في مكة المكرمة ، فناصبته العداء ، ففي موسم سنة ٦٠٨هـ/١٢١١م وثب حاج من العراق على شريف من أقرباء قتادة فقتله (٢) ، فسار الشريف أبو عزيز في الأشراف والعربان ، وقصدوا الحجيج العراقي ، فنهبوهم نهباً شنيعاً ، اذ سرقوا من الأحمال والجمال مالا يمكن وصفه ، ورموهم بالحجارة والنبل ، فأنتقل الحجيج العراقي الى مقر الحجيج الشامي وأستجاروا بهم . وكان في الحجيج الشامي ربيعة خاتون بنت أيوب أخت الملك العادل صاحب دمشق . فأجارت الحجيج ، ومنعت أبا عزيز منهم ، وأرسلت اليه توعده فكف عنهم. وطلب قتادة مائة ألف دينار تعويضاً فجمعوا له ثلاثين ألفاً . وتذكر المصادر

---

(١) الفاسى : تحصيل المرام ، ورقة ٨٩ ؛ المقريزى : السلوك ، جـ١ ، ص ١٧٤ - ١٧٥ ؛ الجزيرى : درر الفوائد ، ص ٢٦٨ - ٢٦٩ .

(٢) ابن واصل مفرج الكروب ، جـ ٣ ، ص ٢١٠ - ٢١٢ ؛ المقريزى: السلوك جـ ١ ، ص ١٧٤ - ١٧٥ ؛ السباعى : تاريخ مكة ، جـ ١ ، ص ٢٢٤ - ٢٢٥ .

التاريخية أنه لولا إجارة ربيعة خاتون لهم لأبادهم قتادة عن آخرهم. وعندما هاجم قتادة الحجيج العراقي فرّ من كان بمكة من نواب الخليفة ومن المجاورين .(١)

وشعر قتادة بعد ذلك بالندم على ما حدث ، فأرسل ولده راجحاً وجماعة من أصحابه الى بغداد للخليفة ليعتذروا عما حدث. وقبلت أعذارهم . وما لبث الخليفة الناصر العباسي في بغداد أن أرسل الى قتادة في سنة ٦٠٩هـ/ ١٢١٢م مالاً وخلعاً ، وطلب اليه الحضور الى بغداد ، فتوقع قتادة الشر ، وأبى أن يستجيب الى وعود الخليفة ، فغضب الخليفة وأنذره بأن يرسل اليه جيشاً ، فأعد قتادة نفسه لمواجهة الشدائد . وانضم اليه في هذه المحنة بنو عمه من آل مهنى في المدينة المنورة .(٢)

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، جـ ١٢ ، ص ٢٩٧ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ٣ ، ص ٢١٠-٢١٢ ؛ المقريزى : السلوك ، جـ ١ ، ص ١٧٥ - ١٧٦ ؛ ابن أيبك : الدر المطلوب ، ص ١٧١ .

(٢) الطبرى : إتحاف فضلاء الزمن ، ورقة ٢١ - ٢٢ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ ٦ ، ص ٢٠٦-٢٠٧ .

ولم يقتصر إستخفاف قتادة بأولى الأمر في بغداد بل تعداه الى غيرهم . ففى سنة ٦١١هـ/ ١٢١٤م قصد الملك عيسى بن العادل الأيوبى صاحب دمشق بلاد الحجاز حاجاً ، وبذل من أمواله في سبيل البر الشيء الكثير . وفى المدينة المنورة استقبله أميرها سالم بن قاسم الحسيني ، وأنزله في داره ، وبالغ في الحفاوة به ، ثم صحبه الى مكة ، فلما قدم مكة ، استقبله أميرها قتادة ، فسأل الملك الأيوبي عن المكان المعد لإقامته فأجابه قتادة مشيراً بسوطه .. " هناك " ويعنى بذلك الأبطح (١) . فشعر الملك عيسى أن قتادة قد إستهان به ، وغاظه ذلك منه كثيراً وأسر هذا في نفسه . وفى طريق عودته الى دمشق ، بعث عسكراً من عساكر الشام ، لتساعد الأمير سالم صاحب المدينة المنورة في حربه ضد قتادة . (٢)

وفى سنة ٦١٢هـ/ ١٢١٥م تفاقم الخلاف بين قتادة وسالم صاحبى مكة المكرمة والمدينة المنورة . وزحف قتادة الى المدينة المنورة وحاصرها

---

(١) الأبطح هى بطاح مكة ، أنظر ياقوت الحموى : معجم البلدان ج١ ،ص ٤٤٤ .

(٢) ابن فهد : اتحاف الورى ، ورقة ٢٤٩ ؛ الطبرى : إتحاف فضلا الزمن ، ورقة ٢١-٢٢ ؛ المقريزى : السلوك ، ج١ ، ص ١٨٠ ؛ الذهب المسبوك ، ص ٧٥ - ٧٦ ؛ الجزيرى : درر الفوائد ، ص ٢٧٢-٢٧٣ .

وأباد كثيراً من نخلها . ولكن الهزيمة حلت بقتادة في وادي الصفراء [١] . وغنم الأمير سالم صاحب المدينة من أمواله وسلاحه الشيء الكثير ،وأسر من جيش قتادة عدداً كبيراً سيره الى دمشق . ثم تبع الأمير سالم بن قاسم الحسيني الأمير قتادة الى مكة المكرمة غير أن منيته وافته في الطريق قبل وصوله الى مكة المكرمة ، فقام قاسم بن جماز - وهو ابن أخيه - بتدبير أمر الجيش بعده ، واستعد قتادة لملاقاته ،وسار الى ينبع ولقيه ، ثم مالبث قاسم بن جماز أن انتصر على قتادة [٢] . وهكذا لم يستطع الأمير قتادة صاحب مكة أن يحقق النصر على أعدائه في المدينة المنورة ،غير أنه ثبت حكمه في مكة المكرمة .

وقد ذكر ابن الأثير في تاريخه أن ولاية قتادة اتسعت في بعض السنين من حدود اليمن الى المدينة المنورة ، وكثر عدد عسكره حتى خافه العرب في تلك البلاد خوفاً عظيماً [٣] . وكان قتادة في أول أمره حسن السيرة طيب الذكر ، واستطاع أن ينشر الأمان ويقيم العدل والرخاء ،

---

(١) وادي الصفراء : وادي بقرب المدينة ، يبعد عنها حوالي ١٨٠ كيلومتر وهو كثير النخل والزرع . ياقوت الحموي : معجم البلدان ،جـ٣ ،ص٤١٢ الحربي : كتاب المناسك ،ص ٤١٤ .

(٢) ابن فهد : إتحاف الورى ، ورقة ٢٤٩ ؛ المقريزي : السلوك ، جـ١ ،ص ١٨٠ ؛ أبو شامة : الروضتين ،جـ ١ ،ص ٨٩-٩٠ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ،جـ ١٢ ، ص ٤٠١ .

ويكرم وفادة الحجاج ، ولكنه ما لبث بعد ذلك أن أساء سيرته ، وجدد المكوس ، حتى أنه نهب الحجاج في بعض السنين .[(١)]

وفي سنة ٦١٣هـ/١٢١٦م قدم الشريف قاسم بن جماز من المدينة المنورة فأغار على مدينة جدة فخرج اليه الشريف قتادة -أمير مكة- وهزمه يوم النحر[(٢)] . وفي جمادى الأولى من سنة ٦١٣هـ/١٢١٦م تمكن الشريف قتادة من هزيمة بني ثقيف والإستيلاء على الطائف ، بعد أن قتل الكثير من مشايخ بني ثقيف . ونهب جيش قتادة الطائف ، وأثناء عملية النهب هذه ، فقد كتاب أثرى للنبى صلى الله عليه وسلم ، الذى بعثه الى أهل الطائف ، وكان بحوزة شيخهم حمدان الثقفي . وقد استخلف قتادة نواباً له على البلاد ، وأمدهم بعبيد لدعم قوتهم ، لكن أهل الطائف تمكنوا من قتل جماعة قتادة بحيلة بارعة ذكرها ابن فهد فى إتحاف الورى وهى أنهم اعتادوا الإجتماع بأصحاب قتادة في مكان معين ، ولما فكروا فى التخلص من جماعة قتادة ، دفنوا سيوفهم في مكان الإجتماع المعهود ، ثم أرسلوا

---

(١) ابن الاثير : الكامل ، ج ١٢ ، ص ٤٠١ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم ، ج ٦ ، ص ٢٤٩ - ٢٥٠ ؛ أبو الفدا : تاريخ أبو الفدا : ج ٣ ، ص ١٣٧ .

(٢) المقريزى : السلوك ، ج ١ ، ص ١٨٥ .

الى أصحاب قتادة يستدعونهم ، بحجة أن كتاباً من قتادة ورد عليهم ، وسيتباحثون معهم بشأنه . فلما حضر أصحاب قتادة الى مكان الاجتماع ، الذى دفنت فيه السيوف ،ذبحهم أهل الطائف جميعاً ،ولم يسلم منهم الا واحداً هرب الى قتادة ،وقد كاد يختل عقله لهول ما رآى .(1)

وفى سنة ٦١٦هـ/١٢١٩م كان أمير الحاج العراقي الدوادار أقباش الناصرى العباسى ، قد وصل الى مكة المكرمة ، ومعه خلعة من الخليفة للشريف حسن بن قتادة الحسنى ، وأمر منه بتقليده أمر مكة ،عوضاً عن أبيه قتادة ، وذلك رغبة من الخليفة العباسى في عزل قتادة ،وتوليه ابنه الحسن .(2) ولكن قتادة إستمر في أمارته لمكة المكرمة . وتذكر المصادر التاريخية،أنه في جمادى الآخرة سنة ٦١٧هـ/١٢٢٠م جمع قتادة جموعاً كثيرة ،وسار بهم من مكة المكرمة يريد المدينة المنورة ، ونزل بوادى الفرع(3) - وكان مريضاً - فسير أخاه على الجيش ومعه ابنه الحسن بن قتادة للإستيلاء على المدينة النبوية ،فوثب الحسن بن قتادة على عمه وقتله أثناء الطريق ، لأنه سمع أن عمه قد أخذ العهد لنفسه في أمارة مكة بعد قتادة

---

(1) ابن فهد : اتحاف الورى ، ورقه ٢٤٩

(2) الجزيرى : درر الفوائد ،ص ٢٧٣-٢٧٤ ؛ سليمان مالكى : مرافق الحج ،ص ١٨٠.

(3) وادى الفرع : قرية كانت من نواحى المدينة المنورة ،كان بينها وبين المدينة ثمانية برد على طريق مكة المكرمة ، انظر ياقوت : معجم البلدان ،جـ ٤ ،ص ٢٥٢.

فلما سمع قتادة بهذا أغتاظ وأقسم على قتل ولده ، ولكن الحسن كان الأسبق الى ذلك فقد خنق أباه وقتله . وهكذا توفي قتادة بن إدريس العلوى الحسنى أمير مكة عن عمر يناهز التسعين ، سنة ٦١٨هـ/ ١٢٢١م ، وتولى بعده ابنه الحسن .

وكان لقتادة إبن آخر اسمه راجح ، يقيم بظاهر مكة مع العرب . وكان ينازع أخاه في ملك مكة ، وحانت له الفرصة في تحقيق رغبته فى نفس سنة ٦١٨هـ/ ١٢٢١م عندما قدم حجيج العراق ، وكان عليهم أقباش الذى عرف بحسن معاملته للحجاج . وفى الطريق أتاه راجح بن قتادة وبذل له وللخليفة مالاً ، طالباً مساعدته في تولى أمر مكة ، فأجابه أقباش الى طلبه ، ووصل الجميع الى مكة ونزلوا بالزاهر ، ودخل راجح مكة ، مقاتلاً صاحبها أخاه حسن بن قتادة يساعده في ذلك أقباش أمير الحاج العراقى .(١)

وكان الأمير حسن ابن قتاده قد علم بمقدم أخيه ، فجمع له جموعاً كثيرة من العرب وغيرها ، وخرج اليه من مكة لقتاله ، فتسلل أمير الحاج أقباش من بين يدى عسكره منفرداً ، وصعد الجبل معرضاً نفسه للخطر ، ويعتبر

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٢ ، ص ٤٠٢-٤٠٤ .

هذا العمل مجازفة منه لا يقدم عليها أحد . فأحاط به أصحاب حسن وقتلوه ، وعلقوا رأسه على مرأى من الجميع ، فانهزم عسكر أمير المؤمنين ، وفرّ راجح بن قتادة الى الملك المسعود باليمن ، وأحاط أصحاب حسن ابن قتادة بالحجيج العراقي يريدون نهبهم . فأرسل اليهم حسن عمامته إشارة أمان للحجاج . وأمر منه لأصحابه بالعودة ، فعاد أصحابه ولم ينهبوا منهم شيئاً ، وسكنت نفوس الحجاج ، وأذن لهم حسن في دخول مكة المكرمة ، وفعل مايريدونه من الحج والبيع وغير ذلك ،وأقاموا بمكة المكرمة عشرة أيام ، ثم رجعوا الى العراق سالمين . وعظم الأمر على الخليفة عندما علم بأمر ما حدث ، ولكن حسن بن قتادة أرسل الى الخليفة معتذرا طالباً العفو فأجيب الى ذلك .(١) واستمر حسن على ولاية مكة الى سنة ٦١٩هـ/١٢٢٢م ، حيث انتزعها منه الملك المسعود صاحب اليمن في حملته المشهورة .

أما عن حملة الملك المسعود يوسف بن الكامل الأيوبي الملقب باقسيس على مكة المكرمة ، ففي شهر ربيع الأول سنة ٦١٩هـ/١٢٢٢م سار الملك

---

(١) الطبري : إتحاف فضلاء الزمن ، ورقة ٢١-٢٢ ؛ ابن الأثير : الكامل ، جـ١٢ ، ص ٤٠١-٤٠٢ ؛ المقريزي : السلوك ، جـ ١ ، ص ٢٠٦ ؛ الفاسي : شفاء الغرام ، جـ ٢ ، ص ١٩٨-١٩٩ ؛ العقد ، جـ ٤ ، ص ١٦٦-١٦٨ ؛ يحيى بن الحسين : غاية الاماني ، جـ ١ ، ص ٤٠٣ - ٤١٤ .

المسعود الى مكة المكرمة ،لقتال الشريف الحسن بن قتادة الذى أعلن عداءه للأيوبيين . والتقي الفريقان في المسعى بين الصفا والمروة ،ودارت بينهما معركة انتهت بهزيمة الحسن ، ففارق الحسن مكة مع من كان معه . وقد قام عسكر الملك المسعود بنهب مكة المكرمة . وذكرت المصادر التاريخية أنهم نهبوا كل ما فيها ،حتى أنهم أخذوا عن الناس ثيابهم. وأخيراً نادى المسعود بالأمان وأوقف النهب وسفك الدماء .[(١)] [(٢)]

فلما كان يوم عرفة من سنة ٦١٩هـ/١٢٢٢م منع الملك المسعود أعلام الخليفة العباسى أن تتقدم أعلام أبيه السلطان الأيوبي الملك الكامل . وقد أظهر في ذلك من الجرأة على الله قبائح ؛ ويقال أنه كان يصعد على زمزم فيرمى حمام الحرم بالبندق ،ويستخف بحرمة الكعبة، وأكثر من سفك الدماء ، وكان اذا نام في داره بالمسعى ضرب الحراس

---

(١) ابن فهد : إتحاف الورى ، ورقة ٢٥٢ ؛ الخزرجي : المسجد ، ورقة ١٨٨ ؛ مجهول المؤلف : تاريخ اليمن ،ص ٤ ؛ ابن الأثير: الكامل ، جـ ١٢ ،ص ٤١٣ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ،جـ ٤ ،ص ١٢٥

(٢) الخزرجي : المسجد ،ورقة ١٨٨ ؛ المقريزى : الذهب المسبوك، ص ٧٧ - ٧٨ ، الفاسى : العقد ، جـ ١ ،ص ١٧٤ ؛ شفاء الغرام : جـ ٢ ،ص ١٩٨-١٩٩ ؛ ابن ظهيرة : الجامع اللطيف، ص ٣٠٩ - ٣١١ .

الساعين بالمسعى بأطراف السيوف ، لئلا يشوشوا على المسعود نومه العميق من شدة السكر .[١]

وقد ذكر الفاسي في كتابه (العقد الثمين) نقلاً عن إبن محفوظ أنه كان برفقة الملك المسعود في أثناء حملته هذه على مكة المكرمة راجح ابن قتادة ، وقد ولاه المسعود السرين وحلي ونصف المخلاف[٢] . ورد الملك المسعود على أهل الحجاز جميع أموالهم ونخلهم ، وماكان أخذ منهم في

---

(١) ابن فهد : إتحاف الورى ، ورقة ٢٥٢ ؛ المقريزى : الذهب المسبوك ، ص ٧٧ - ٧٨ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ٤ ، ص ١٢٣-١٢٥ ؛ أبو شامة : تراجم ، ص ١٣٢ ؛ ابن الوردى : تاريخ ، جـ٢ ، ص٢١٣ -٢١٤ ، والبندق كرات تصنع من الطين أو الحجارة أو الرصاص أوغيرها ؛ وهى فارسية بلفظها واستعمالها ، انظر المقريزى : السلوك ، جـ١ ، ص ١٧٢ ، حاشية .

(٢) الفاسى : العقد ، جـ ٤ ، ص ١٦٩ - ١٧٠ ؛ شفاء الغرام ، جـ٢ ، ص ١٩٨ - ١٩٩ ؛ انظر أيضاً : المقريزى ، السلوك ، جـ١ ، ص ٢١٣ ، باخرمه : تاريخ ثغر عدن ، جـ ٢ ، ص ١٧٤ - ١٧٥ ؛ وحلى : بلد حجازى على ساحل البحر الأحمر من جهة الجنوب الغربى لمكة المكرمة ؛ والسرين هى : بليدة قريب من مكة المكرمة على ساحل البحر الأحمر ، بينها وبين مكة أربعة أيام أو خمسة ، والمخلاف : جمعها مخاليف ومخاليف اليمن بمنزلة الكور ، انظر ياقوت : معجم البلدان : جـ ٣ ، ص ١٢٩ ؛ جـ ٥ ص ٦٧ .

الوادى وفي دور مكة ، كما أنه قام ببناء القبة الموجودة على مقام ابراهيم عليه السلام [١] . وقد كثرت الأرزاق بمكة ، وأمنت الطرق وقلت حوادث السرقة فى عهده لعظم هيبته ، واليه تنسب الدراهم المسعودية التى تم التعامل بها في مكة المكرمة [٢] . وقد صار يخطب لوالده السلطان الملك الكامل الأيوبى صاحب مصر [٣] . ولما استتب نفوذ الملك المسعود في مكة المكرمة جعل أمرها لنائبه نور الدين على بن عمر بن رسول سنة ٦١٩هـ/١٢٢٢م ، ورتب له عسكراً ثم عاد الى اليمن .

وفى سنة ٦٢٠هـ/١٢٢٣م جاء الحسن بن قتادة بجيش من ينبع ، قاصداً على بن رسول لقتاله ، والتقى نور الدين مع الحسن فى الحديبية [٤] ،

---

(١) ابن فهد : إتحاف الورى ، ورقة ٢٥٢ ؛ الجزيرى : درر الفوائد ، ص ٢٧٣

(٢) الفاسى : تحصيل المرام ، ورقة ٨٩ ؛ العقد ، جـ ٧ ، ص ٤٩٤-٤٩٥ .

(٣) الفاسى : تحصيل المرام ، ورقة ٨٩ ؛ الجزيرى : درر الفوائد ، ص ٦٦٤ - ٦٦٥ .

(٤) الحديبية : وهى قرية مشهورة في تاريخ عصر النبوة ، وبينها وبين مكة مرحلة وهى على بعد ٢٠ كيلو متراً ، من طريق مكة الى جدة ، انظر : ياقوت : معجم البلدان ، جـ ٢ ، ص ٢٢٩-٢٣٠ ؛ عاتق البلادى : معجم الحجاز ، جـ ٢ ، ص ٢٤٦

حيث هزم الحسن وفرّ هارباً الى بلاد الشام ، ومنها الى العراق ، ووصل الى بغداد ، فأدركه أجله هناك سنة ٦٢٢هـ/ ١٢٢٥ م.(١)

بقى نور الدين عمر بن رسول والياً على مكة المكرمة من قبل الملك المسعود يوسف بن الكامل الأيوبى سنة واحدة (٢) . بعدها إستدعاه الملك المسعود طالباً اليه العودة الى اليمن ، بعد أن أزمع العودة الى مصر . وولى مكة بعد ذلك الأمير صارم الدين ياقوت المسعودى . وكان يلقب نفسه (أمير الحج والحرمين ومتولى الحرب بمكة ومدير أموال الجند)، وقد إستمرت ولايته حتى سنة ٦٢٥ هـ / ١٢٢٧م.(٣)

ولما كانت سنة ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م ،اراد الملك المسعود العودة الى

---

(١) الطبرى : إتحاف فضلاء الزمن ، ورقة ٢٢-٢٣ ؛ الفاسى : تحصيل المرام ورقة ٨٩ ؛ المقريزى : السلوك ، جـ١ ، ص ٢١٣ ؛ الفاسى : العقد ، جـ٤ ، ص ١٦٩-١٧٠ ؛ القلقشندى : صبح الاعشى جـ ٤ ، ص ٢٧٣ ؛ محمد عبد الفتاح عليان : الحياة السياسية ومظاهر الحضارة فى عهد دولتى بنى رسول ، ص ٢٨-٢٩ .

(٢) السليمان : العلاقات الحجازية ، ص ٢٥-٢٦ ؛ محمد عبد الفتاح عليان: الحياة السياسية ، ص ٢٨-٢٩ .

(٣) الطبرى : إتحاف فضلاء الزمن ، ورقة ٢٢-٢٣ ؛ ابن ظهيرة: الجامع ، ص ٣٠٩ - ٣١١ ؛ الفاسى : العقد جـ ١ ، ص ١٧٤ ؛ شفاء الغرام ، جـ ٢ ، ص ١٩٩ - ٢٠٠ ؛ ابن زينى دحلان : خلاصة الكلام ، ص ٢٤-٢٥ .

مصـر ، فأناب عنه على اليمن على بن رسول ، فلما وصل الملك المسعـود الى مكة المكرمة ، فى طريقه الى مصر ، اشتد به المرض ،وتوفى فيها ودفـن بالمعلاة في يوم الإثنين ١٤ من جمادى الأولى سنة ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م [١].

وعلى أثر وفاة الملك المسعود سنة ٦٢٦ هـ/ ١٢٢٨ م إضطرب أمر الحكم في مكة المكرمة من جديد ، خاصة بعد أن أقام نور الدين على بـن رسول دولة له في بلاد اليمن . وخاف السلطان الكامل الأيوبى من أحكـام سيطرة آل رسول على مكة المكرمة ، فسيّر في شوال من سنة ٦٢٧هـ/ ١٢٢٩م ابنه طغتكين وجعله والياً على مكة المكرمة [٢]. وتمكن الأمير طغتكين مـن طرد اليمنيين من مكة المكرمة ، وقاتلهم قتالاً شديداً ،وبذلك استولى على أمارتها ، وخطب فيها للملك الكامل الأيوبى . وذكر الفاسى فى كتابـه (العقد الثمين) : " حكى لى من حضر الخطبة بمكة المكرمة يوم الجمعة ، فسمع الخطيب يقول على المنبر فى حق الملك الكامل : صاحب مكة وعبيدها ، واليمن وزبيدها ، ومصر وصعيدها ، والشام وصناديدها ، والجزيرة ووليدها،

---

(١) الفاسى : العقد ، جـ ٧ ، ص ٤٩٤-٤٩٥ ؛ ابن الوردى : تاريخ ، جـ٢ ص ٢٢٣ ؛ الخزرجى : العقود اللؤلؤية ، جـ١ ، ص ٤٢ ؛ القلقشندى : صبح الاعشى ، جـ ٤ ، ص ٢٧٣ ؛ بامخرمة : تاريخ ثغر عدن : جـ ٢ ص ١٧٨ - ١٧٩

(٢) الطبرى : إتحاف فضلاء الزمن ، ورقة ٢٢-٢٣ ، ابن أيبك : الـدر المطلوب ، جـ ٧ ، ص ٣٠٧ ؛ ابن ظهيرة : الجامع اللطيف ، ص ٣٠٩ - ٣١١

سلطان القبلتين ، ورب العلا متين ، وخادم الحرمين الشريفين ، أبو المعالي محمد الملك الكامل ناصر الدين خليل أمير المؤمنين ".[1]

وفي شهر ربيع الثاني من نفس سنة ٦٢٧هـ/ ١٢٢٩م ، جهز الملك المنصور نور الدين عمر بن علي بن رسول صاحب اليمن جيشاً جعل على مقدمته إبن عبدان وكان معهم الشريف راجح بن قتادة ، وسيّره الى مكة المكرمة لقتال الامير طغتكين واسترجاع أمر مكة منه . ونزل جيش آل رسول بالأبطح أي بطاح مكة محاصرين . وما أن علم رؤساء مكة بقدوم هذا الجيش حتى مالوا الى راجح بن قتادة ، ضد حاكمهم طغتكين . فلما أحس طغتكين الأيوبي بذلك ، فرّ الى وادي نخلة في طريق الطائف ، ومنها الى ينبع ، تاركاً مكة يحتلها راجح . وبذلك عادة مكة الى ملك اليمن نور الدين عمر ابن علي بن رسول[2] وخطب فيها للمنصور صاحب اليمن ، وهي أول خطبة خطب له فيها . وهكذا نجحت الحملة اليمنية في تحقيق أغراضها وتثبيت الشريف راجح بن قتادة على إمارة مكة ، بعد أن أعلن ولاؤه للرسوليين ، وبعث ابن رسول خزانة كبيرة ، وحكم الشريف راجح بن قتادة مكة المكرمة موالياً لبني رسول . أما طغتكين الأيوبي فقد أقام في ينبع ، وأرسل منها

---

(١) الفاسي : العقد ، جـ ٢ ، ص ٢٧٩ - ٢٨٤ .

(٢) الخزرجي : المسجد ، ورقة ١٩٨-١٩٩ ؛ المقريزي : السلوك ، جـ١ ، ص ٢٤٤-٢٤٥ ؛ الخزرجي : العقود ، جـ ١ ، ٤٩-٥٠ ؛ يحيى بن الحسين : غاية الاماني ، جـ ١ ، ص ٤٢٠-٤٢١ ؛ عليان : الحياة السياسية ص ٤٧ ؛ السليمان : العلاقات الحجازية المصرية ، ص ٢٥-٢٦ .

رسولاً الى مصر ليخبر السلطان الملك الكامل بوصول عسكر صاحب اليمـــن ، وما كان من أمر أهل مكة المكرمة مع الشريف راجح بن قتادة .(١)

ولما علم السلطان الملك الكامل بهذا الأمر ، جهز جيشاً كثيفاً فـــي جمادى الآخرة سنة ٦٢٩هـ/١٢٣١م بقيادة الأمير فخر الدين شيخ الشيوخ وأمر الشريف أبا سعد صاحب ينبع ، والأمير شيحة أمير المدينة ،أن ينضما الى عسكره لاخراج راجح بن قتادة .(٢) واستطاع طغتكين بالجيش الكبـير الذى أرسلـه اليه الملك الكامل ، وبمساعدة أميرى ينبع والمدينة ، مــن دخول مكة المكرمة فى صفر سنة ٦٣٠هـ/١٢٣٢م ، ليخرج منها راجحاً ومـن كان معه من أهل اليمن . وقتل إبن عبدان ، وكذلك قتل الكثير من أهـــل مكـة ، لأنهم خذلوه ، وانضموا الى الأمير راجح بن قتادة في المرة الأولـى . ورغم أن السلطان الرسولى عمر بن على بن رسول أرسل حملة عسكرية كبيرة فى نفس سنة ٦٣٠هـ/١٢٣٢م ، لصد الحملة الأيوبية ، الا أنه لم ينجح فـــى

---

(١) الخزرجي : العسجد ، ورقة ٢٠٧ - ٢٠٨ ؛ الخزرجي : العقـــود اللؤلؤية ، جـ ١ ، ص ٤٩ ، ٥٠ ؛ الجزيرى : درر الفوائد ص ٢٧٦-٢٧٧ .

(٢) الطبرى : إتحاف فضلاء الزمن ، ورقة ٢٢-٢٣ ؛ الخزرجي : العسجد ورقة ١٩٨-١٩٩ ؛ ابن أيبك : الدر المطلوب ، ص ٣٠٦ ، المقريزى السلوك ، جـ ١ ، ص ٢٤٤ - ٢٤٥ ؛ القلقشندى : صبح الاعشى ، جـ ٤ ، ص ٢٧٣ ؛ ابن ظهيرة : الجامع اللطيف ، ص ٣٠٩-٣١١ .

قصده ، وعادت حملته دون أن تحقق أغراضها .(١) وعندما علم السلطان الملك الكامل بما فعل طغتكين بأهل مكة المكرمة ، وقتله الكثير منهم ، غضب عليه وعزله ، ثم استدعاه الى مصر ، وأرسل الى مكة المكرمة أميراً غيره ، يقال له إبن مجلي ، فوصل هذا الأمير الى مكة في نفس سنة ٦٣٠هـ/١٢٣٢م .(٢)

وظلت بلاد الحجاز تتأرجح بين آل رسول والأيوبيين ، وبالرغم من دخول الأيوبيين مكة المكرمة الا أن ذلك لم يثبط عزيمة إبن رسول صاحب اليمن . فقد جهز خزانة عظيمة وعسكراً جراراً الى مكة بقيادة الشريف راجح ابن قتادة سنة ٦٣١هـ/١٢٣٣م . ودخل راجح مكة وأخرج الأيوبيين وابن مجلي منها . وفي نفس السنة (٦٣١هـ/١٢٣٣م) بعث نور الدين عمر بن علي بن رسول الى الخليفة المستنصر العباسي - خاتمة خلفاء بني العباس في بغداد - هدية عظيمة ، وسأله ان يقلده بلاد اليمن ، ويكتب

---

(١) ابن فهد : إتحاف الورى ، ورقة ٢٥٤ ؛ الطبري : إتحاف فضلاء الزمن ، ورقة ٢٢-٢٣ ؛ ابن أيبك : الدر المطلوب ، ص ٣٠٩ ، الملك الغساني : العسجد ، ص ٤٥٥ ؛ القوصي : تجارة مصر ، ص ١٦٧-١٦٨ .

(٢) الطبري : إتحاف فضلاء الزمن ، ورقة ٢٢-٢٣ ؛ الخزرجي : العسجد ، ورقة ١٩٩ ؛ المقريزي : السلوك ، ج١ ، ص ٢٤٩ ؛ ابن أيبك : الدر المطلوب ، ص ٣١٢ ؛ الخزرجي : العقود اللؤلؤية ، ج١ ، ص ٥٤ ؛ ابن زيني دحلان : خلاصة الكلام ، ص ٢٦ ؛ السليمان : العلاقات الحجازية ، ص ٢٥-٢٦ .

له بذلك ، ويرسل اليه تقليداً وخلعه ،فعاد اليه الجواب بأن التشريف والتقليد سيصلان اليه فى عرفة ولكنه لم يتم شىء الا فى السنة التالية أى سنة ٦٣٢هـ/ ١٢٣٤م.(١)

فلما كان شهر صفر من سنة ٦٣٢هـ/ ١٢٣٤م ،أرسل السلطان نور الدين محمد بن رسول خزانة كبيرة الى راجح بن قتادة أمير مكة ، على يد ابن النصيرى ، وأمره باستخدام القوة لمنع العسكر الأيوبى من دخول مكة المكرمة . فوصل ابن النصيرى الى راجح فى وقت متأخر ،بحيث لم يتمكن راجح من استخدام هذه القوة فى مقاومة العسكر الأيوبى ، خاصة أن العسكر الأيوبى كان مكوناً من خمسمائة فارس ، بقيادة خمسة من الأمراء ،فى مقدمتهم الأمير أسد الدين جغريل . وانتصر الأيوبيون على الأمير راجح بن قتادة وتمكنوا من دخول مكة المكرمة فى شهر رمضان من نفس السنة ، بعد أن فرّ راجح وابن النصيرى ومن كان معهما من عسكر آل رسول الى اليمن .(٢)

واستمرت ولاية الأمير جغريل بمكة المكرمة نيابة عن السلطان الأيوبى ، الكامل ،وكان دائماً يصد محاولات آل رسول فى استرداد العاصمة المقدسة.

---

(١) الفاسى : العقد ،جـ٦ ،ص ٣٤٣-٣٤٤ ؛ شفاء الغرام ،جـ٢ ، ص٢٣٦-٢٣٧ ؛ يحيي بن الحسين ،غاية الأمانى ،جـ١ ،ص ٤٢١-٤٢٢.

(٢) المقريزى : السلوك ،جـ١ ،ص٢٥٠ ؛ ابن ايبك : الدر المطلوب ،ص ٣١٣ الفاسى : العقد ،جـ٦ ، ص٣٤٤-٣٤٥ ؛ جـ٣ ،ص ٤٣٤ ؛ القوصى : تجارة مصر ،ص ١٦٧-١٦٨.

ففى سنة ٦٣٣هـ/ ١٢٣٥م ، بلغ الأمير جغريل أن الملك المنصور صاحب اليمن قد بعث جيشاً الى مكة المكرمة بقيادة الشهاب بن عبد الله ومعه خزانة ،فخرج اليه الأميرجغريل الكاملى بعساكره ،وأنتصر عليه ، وأسره مع جماعة كثيرة من عسكره ، وأرسله الى القاهرة .(١) وفى السنة التالية أى سنة ٦٣٤هـ/ ١٢٣٦ م ، قدم عسكر من اليمن الى مكة المكرمة مرة أخرى ، فحاربهم الأمير أسد الدين جغريل وهزمهم . لهذا صمم الملك المنصور عمر بن رسول ، أن يذهب بنفسه للقضاء على الحكم الأيوبى فى مكة المكرمة

سار الملك المنصور نور الدين عمر بن رسول الى مكة المكرمة سنة ٦٣٥هـ/ ١٢٣٧م ،عن طريق الساحل في ألف فارس ،فلقيه الشريف بن قتادة ،واعترف له بالسلطان فأرسله ابن رسول فى ثلثمائة فارس الى مكة المكرمة ،ليكونوا فى مسيرته .

ولما وصل الملك نور الدين عمر بن علي بن رسول الى السرين ،أتاه كتاب الشريف راجح بن قتادة يخبره بانهزام الأمراء الأيوبيين عند مكة . وفرار نائب السلطان الكامل الأمير جغريل ، بعد أن أحرق كل ما كان معه من الحوائج والفرشخانات والأثقال ، ودخل السلطان الرسولى مكة معتمراً

---

(١) المقريزى : السلوك ، جـ١ ، ص ٢٥٣ ؛ ابن ايبك : الدر المطلوب ص ٣١٦ ؛ يحيى بن الحسين : غاية الأمانى ،جـ ١ ،ص ٤٢١-٤٢٢ ؛ القوصى : تجارة مصر ،ص ١٦٧-١٦٨ .

في رجب من سنة ٦٣٥هـ/١٢٣٧م ، وتصدق فيها بأموال جزيلة. ثم استخلف عليها رجلان هما : ابن الوليد وابن التعزى ، في مائة وخمسون فارساً ، ورجع الى اليمن سنة ٦٣٦هـ/١٢٣٨م . ولما وصل أمراء مصر الى المدينة المنورة ، على صاحبها أفضل الصلوات والتسليم ، بلغهم خبر وفاة السلطان الملك الكامل الأيوبي ، وأن الخطبة لصاحب اليمن المنصور في مكة المكرمة ، وولاية الشريف راجح بن قتادة في مكة نائباً عن بني رسول .(١)

آلت سلطنة الأيوبيين في مصر والشام الى السلطان الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل . وسار على نهج أبائه وأجداده ، في ضرورة مد النفوذ الأيوبي الى بلاد الحجاز ، ومحاولة القضاء على نفوذ آل رسول بها . لهذا جهز السلطان الصالح في سنة ٦٣٧هـ/١٢٣٩م ، جيشاً تكون من ألف فارس معهم الشريف شيحه صاحب المدينة المنورة . واستطاع دخول مكة المكرمة بغير قتال ، بعد أن أخليت من قبل عسكر المنصور صاحب اليمن ، عندما سمع بمقدمهم .(٢) وخطب بمكة المكرمة للسلطان الأيوبي الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل . فلما سمع الملك المنصور عمر بن علي

---

(١) الخزرجي : العسجد ، ورقة ٢٠١-٢٠٣ ، ابن فهد : إتحاف الورى ، ورقة ٢٥٥ ؛ المقريزي : السلوك جـ ١ ، ص ٢٢٥ ؛ الفاسي : شفاء الغرام جـ٢ ، ص ٢٠٠-٢٠١ ؛ الخزرجي : العقود اللؤلؤية ، جـ١ ، ص ٦١-٦٤ ؛ بامخرمه : تاريخ ثغر عدن ، جـ ٢ ، ص ١٧٧-١٧٨ .

(٢) الخزرجي : العسجد ، ورقة ٢٠١-٢٠٣ ؛ الطبري : الأرج المسكي ، ورقة ٢٤٤ ؛ ابن ظهيرة : الجامع اللطيف ، ص ٣١١-٣١٢ .

ابن رسول صاحب اليمن بذلك ، بعث بابن النضيرى والشريف راجح بن قتادة الى مكة المكرمة فى عسكر جرار ،ففر الشريف شيحه بمن معه عائداً الى السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب .(١)

لم يهدأ السلطان الصالح نجم الدين بن الكامل الأيوبى لما حدث من إسترداد آل رسول ولايةمكة ، فجهز عسكراً بقيادة الشريف شيحة بن هاشم ابن قاسم بن مهنى الحسينى أمير المدينة ، وفيهم علم الدين الكبير ، وعلم الدين الصغير ،فاستولوا على مكة المكرمة سنة ٦٣٨هـ/ ١٢٤٠ م.(٢)

فلما كانت سنة ٦٣٩هـ/ ١٢٤١ م ،جهز السلطان نور الدين عمر بن رسول جيشاً كثيفاً الى مكة المكرمة ، ومعه ابن قتادة . فلما علم عسكر الأيوبيين بقدومهم ، كتبوا الى سلطانهم في مصر يطلبون منه النجدة . فأرسل اليهم مبارز الدين على بن الحسين بن برطاس ، فى مائة وخمسين فارساً لنجدتهم(٣) . فلما علم بذلك عسكر صاحب اليمن ،أقاموا بالسرين

---

(١) ابن فهد : إتحاف الورى ،ورقة ٢٥٥ ؛ المقريزى : السلوك جـ ١ ،ص٣٠٠

(٢) ابن فهد : إتحاف الورى ،ورقة ٢٥٥ ؛ الخزرجي : العسجد ، ورقة ٢٠٣ - ٢٠٥ ؛ المقريزى : السلوك ،جـ١ ، ص ٣٠١- ٣٠٢ ؛ الفاسى العقد ،جـ ٦ ،ص ٣٤٦ - ٣٤٧ ؛ الخزرجي : العقود ، جـ ١ ، ص ٦٨ - ٦٩.

(٣) المقريزى : السلوك ،جـ ١ ، ص ٣١٠.

وكتبوا الى المنصور نور الدين عمر بن رسول بذلك ، فسار الى مكة المكرمة بنفسه في عسكر جرار . وعلم الأيوبيون بقدومه فولوا هاربين ، بعد أن أحرقوا دار السلطنة بمكة ، بما فيها من عدد وسلاح وغيرها . ودخل السلطان المنصور نور الدين عمر بن رسول مكة المكرمة في شهر رمضان سنة ٦٣٩ هـ/ ١٢٤١ م (١) ، وصام بها ، وأبطل عنها المكوس والجبايات ، ورفع عن أهلها المظالم (٢) ، وبعث نور الدين عمر بن علي بن رسول الى صاحب ينبع أبي سعد الحسني بن علي بن قتادة ، فلما آتاه أكرمه ، وأنعم عليه ، واشترى قلعة ينبع منه ، وأمره بهدمها حتى لا تبقى حصناً للأيوبيين (٣). وأمّر الملك نور الدين آل رسول على مكة في نفس السنة (٦٣٩هـ/١٢٤١م) . مملوكة الأمير فخر الدين الشلاح ، وابن فيروز ، وجعل الشريف ابا سعد ابن علي بن قتادة الحسني مساعداً لعسكره في الوادي ، وعاد الى اليمن سنة ٦٤٠هـ/١٢٤٢م (٤).

---

(١) المقريزي : السلوك ، جـ ١ ، ص ٣١٠ .
(٢) ابن فهد : إتحاف الورى ، ورقة ٢٥٥ ؛ المقريزي : الذهب المسبوك صفحة ٧٩-٨٠ ؛ سليمان مالكي : مرافق الحج ، ص ١٨٢-١٨٤ .
(٣) الفاسي : شفاء الغرام ، جـ ٢ ، ص ٢٠١ ؛ الخزرجي : العقود اللؤلؤية ، جـ ١ ، ص ٦٨-٦٩ .
(٤) الخزرجي العسجد ، ورقة ٢٠٣ - ٢٠٥ ، الفاسي : شفاء الغرام ، جـ ٢ ص ٢٠١ ؛ العقد ، جـ ٨ ، ص ١٧٥-١٧٦ ؛ بامخرمة : تاريخ ثغر عدن ، ص ١٧٧ - ١٧٨ ؛ ابن ظهيرة : الجامع ، ص ٣١١-٣١٢ .

استمر الأمير فخر الدين الشلاح والياً على مكة لآل رسول حتى سنة ٦٤٦هـ/١٢٤٨م[1] ، اذ أن السلطان نور الدين عمر بن على بن رسول عزل ابن الشلاح عن ولاية مكة المكرمة فى تلك السنة (٦٤٦هـ/١٢٤٨م) وأمّر بدلا منه ابن المسيب ، بعد أن تعهد ابن المسيب له بدفع مال يؤديه عن الحجاز من نفقات الجند ، وإرسال مائة فرس كل سنة . وخرج إبن الشلاح من مكة بعد أن دخلها ابن المسيب . وأقام ابن المسيب بمكة من سنة ٦٤٦هـ/١٢٤٨م الى ذى القعدة سنة ٦٤٧هـ/١٢٤٩م[2].

وولى مكة المكرمة بعد ابن المسيب أبو سعد حسن بن على بن قتادة الحسنى بعد قضائه على حكم ابن المسيب ، وفرار راجح بن قتادة الى اليمن فى تلك السنة (٦٤٧هـ/١٢٤٩م)[3] . ودامت ولاية أبو سعد حسن ابن قتادة الى أن قتل سنة ٦٥١هـ/١٢٥٣م ، على يد جماز بن حسن بن قتادة ، الذى كان قد سار الى الناصر بن العزيز بن الظاهر بن أيوب بدمشق ، فجهز له عسكراً ،وسار به الى مكة المكرمة كى يعيد حكم بلاد

---

(١) الفاسى : شفاء الغرام ،جـ ٢ ،ص ٢٠١ ؛ ابن ظهيرة : الجامع ، ص ٣١١-٣١٢ .

(٢) ابن فهد : إتحاف الورى ،ورقة ٢٥٦-٢٥٧ ؛ الخزرجى : العسجد ، ورقة ٢٠٧-٢٠٨ ؛ الخزرجى : العقود ،جـ ١ ، ص ٧٧- ٧٨ .

(٣) ابن فهد : اتحاف الورى ،ورقة ٢٥٧ ؛ الفاسى : العقد ،جـ ٤ ، ص ٣٧٧ - ٣٧٨ .

الحجاز للأيوبيين ، فقتل أبا سعد ،وتولى هو أمر مكة المكرمة .ولكن حكمه فيها لم يدم سوى شهرين . اذ قدم راجح بن قتادة من اليمن الى مكة المكرمة ،وقدأصبح شيخاً متقدماً في السن ، فأخرج منها جماز بن حسن ،الذى هرب عندئذ الى ينبع ، وعادت الفوضى مرة أخرى الى مكة المكرمة (١).

هكذا عمت الفوضى والإضطراب بلاد الحجاز عندما بدأ الخلاف والتنافس بين الأيوبيين في مصر والرسوليين فى اليمن حول السيطرة على بلاد الحجاز .وقد تداول الحكم فى مكة المكرمة ولاة كل من الفريقين المتنافسين نحو عدة سنوات قاست مكة خلالها من غلاء المعيشة وقلة الأرزاق ، مما كان له أسوأ الأثر على مكة من الناحية الاقتصادية بصفة عامة وعلى الحجاز بصفة خاصة فى منتصف القرن السابع الهجرى .. الثالث عشر الميلادى .

-.-

---

(١) الخزرجي : العسجد ، ورقة ٢٠٧ - ٢٠٨ ، القلقشندى : صبح الاعشى ،جـ ٤ ، ص ٢٧٣ ، الفاسى : شفاء الغرام ، جـ ٢ ،ص ٢٠١ القوصى : تجارة مصر ،ص ١٦٨ - ١٦٩ .

الفصل الثالث

الأحوال الاقتصادية في بلاد الحجاز في العصر الأيوبي

- النشاط التجاري في مدن الحجاز وموانئه.
- أنواع السلع الواردة والصادرة.
- الضرائب والمكوس وطرق جبايتها.
- الحرف والصناعات.
- أنواع النقود ودار الضرب بمكة المكرمة

كان لموقع بلاد الحجاز الممتاز على البحر الأحمر ، وإتصاله ببلاد الشام شمالاً واليمن جنوباً ، وبمصر براً وبحراً ، أثره العظيم في النشاط التجارى ، داخل شبه الجزيرة العربية وخارجها . ونتيجة لتعدد مراحل ذلك النشاط إختلفت أطواره بين البر والبحر . فمنذ أقدم العصور سارت قوافل التجارة من اليمن عبر أراضى الحجاز حتى وصلت الى الشام حيث مرت بمدن هامة كصنعاء ومأرب ، ومكة المكرمة والمدينة المنورة ، ثم مدائن صالح حتى غزة وجنوب الشام . ومن بلاد الحجاز تعددت وجهات القوافل حاملة البضائع ، فكانت تسير الى مصر والشام والعراق والى اليمن والحبشة . وكانت المراكب تأخذ طريقها الى مصر واليمن عبر ثغور الحجاز على البحر الأحمر ، كما كانت هذه الثغور الحجازية تستقبل سفناً تجارية من الحبشة والهند والصين فضلاً عن مصر (١) .

ومن أهم المدن التجارية بإقليم الحجاز في العصر الأيوبي ، مكة المكرمة ، والمدينة المنورة ، أشرف بلاد الله تعالى وأجلّ بقاع الأرض ، وكان للطائف شهرة فى التجارة البرية أيضاً . وهناك عوامل عديدة

---

(١) على بن الحسين : النشاط التجارى ، ص ٨٣ .

ساعدت على سرعة إزدهار مكة المكرمة تجارياً ، منها موقعها الفريد على طريق القوافل التجارية القادمة اليها من اليمن قاصدة الشام أو العكس . هذا الموقع الذى جعل مكة بالنسبة لتلك القوافل محطة تجارية، تتزود منها بالماء والمؤنة ، لمتابعة رحلتها . وأهم العوامل التى هيأت لمكة ذلك الازدهار التجارى وجود الكعبة المشرفة بها [١] ، التى يقصدها عشرات الألوف من الحجاج في موسم الحج فينشط فيها البيع والشراء . ومما زاد في أهمية مكة تجارياً ، قربها من ميناء جدة الواقعة على ساحل البحر الأحمر ، إذ أنها تبعد عنها مسافة أربعين ميلاً . وجابت قوافل مكة أرجاء شبه الجزيرة العربية في رحلاتها التجارية مصدرة ومستوردة واستقبلت في أسواقها قوافل البر من اليمن والشام ، وخرجت بقوافلها الى تلك البلاد . ورست بثغرها جدة المراكب من شتى البلاد ، حتى أن أسواقها في العصر الأيوبى ، كانت تزخر بشتّى أنواع البضائع والمنتجات المتنوعة [٢] .

وقد تحدث ابن جبير [٣] في رحلته الى الأراضى الحجازية، في عصر صلاح الدين ، عن أهمية مكة المكرمة من الناحية التجارية ، فذكر

---

(١) على بن الحسين : النشاط التجارى ، ص ٨٦ .

(٢) نعيم زكى : طرق التجارة الدولية ، ص ١٣٨ .

(٣) ابن جبير، الرحلة ، ص ١٣٨ .

أن الطريق إليها ملتقى الصادر والوارد ، وموسم إجتماع الحجيج الذين جاءوا ملبين ، فهي أكثر البلاد نعماً وفواكه والثمرات تجبى إليها من كل مكان . وقد كان لموسم الحج آثاره البعيدة المدى من الناحيتين الإقتصادية والإجتماعية ، سواء أكان ذلك في العصر الأيوبي ، أو فيما سبقه من عصور . فقد كانت تقام في مواسم الحج أسواق عامة ، وإقامة هذه الأسواق يعد تقليداً من تقاليد الحج ، لأنها كانت في أيام معلومة وأماكن مستقرة .(١)

ومن ثغور الحجاز على البحر الأحمر ينبع والجار وجدة .وقد أسهمت هذه الثغور الحجازية على البحر الأحمر في العصر الأيوبي الى حد بعيد في إمتداد النشاط التجارى لمكة المكرمة والمدينة المنورة الى البلاد البعيدة . فكانت هذه الثغور على الساحل الشرقي للبحر الأحمر تستقبل السفن التجارية القادمة من اليمن والحبشة محملة بالبضائع ، ثم تنقل القوافل هذه البضائع من ميناء جدة الى مكة المكرمة. كما كان لثغرى الجار وينبع نشاط تجارى غير قليل ، فهما يعتبران منفذ المدينة المنورة عبر البحر الأحمر .(٢)

---

(١) أحمد الشريف : مكة والمدينة ، ص ١٨٤ - ١٨٥.

(٢) على بن الحسين : النشاط التجارى ، ص ١٠.

ولقد إحتلت الموانيء الواقعة على بحر الحجاز أهمية كبيرة في تجارة العالم الوسيط ، خاصة في العصر الأيوبي ، بعد أن أصبحت تجارة البحر الأحمر في أيد المسلمين دون سواهم .(١)

وكانت لبلدة جدة أهمية كبيرة في النشاط التجارى على الشاطيء الشرقي للبحر الأحمر، إذ أنها لم تكن مرفأ مكة التجارى فقط ، بل مرفأ الحجاز بأسره(٢) ، هذا فضلاً عن إتساع الميناء ذاته عن ميناء ينبع ، وغيره من الثغور الحجازية . وكانت هناك عدة طرق تجارية تصلها بالبلدان الأخرى مما يزيد في أهميتها فمنها : طريق يصل بلدة جدة بمكة شرقاً ، وطريق برى يحاذي الساحل متجهاً الى الجنوب ليصلها باليمن وصعدة ، وطريق آخر يصلها بالجار شمالاً . وأجتمعت هذه العوامل كلها لتجعل ذلك الميناء يعتلى صرح تجارة الحجاز ، لأكثر من عدة قرون منذ إنشائه .(٣)

ويرجع إتخاذ جدة مرفأً تجارياً لمكة المكرمة ، الى عهد الخليفة

---

(١) حسنين ربيع : وثائق الجنيزة وأهميتها لدراسة التاريخ الإقتصادى لموانيء الحجاز واليمن في العصور الوسطى ، الندوة العالمية الأولى لمصادر تاريخ الجزيرة العربية (١٩٧٧م) ، ص ١١ .

(٢) القلقشندى : صبح الاعشى ، جـ ٥ ، ص ٢٥٨

(٣) على بن الحسين : النشاط التجارى ، ص ٩٧ - ٩٨ .

الثالث عثمان بن عفان[١] رضى الله عنه . ففى سنة ٢٦هـ/٦٤٦م إعتمر الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه من المدينة المنورة ، وأتى مكة المكرمة ، فسأله أهلها أن ينقل ساحل مكة القديم من الشعيبية الى جدة لقربها من مكة[٢] . ونتيجة لذلك إزدهرت جدة بسرعة ، فقد ذكر ابن جبير أنه رأى بجدة أثر سور محيط بها ،وبها مسجدين ينسبان لعمر بن الخطاب رضى الله عنه[٣] .

وظلت جدة منذ أيام عثمان بن عفان رضى الله عنه ، وفي العصر الأيوبي وما بعده ، ميناء مكة ، يأتى الحجاج إليها بطريق البحر ،فتزدهر أسواقها في مواسم الحج ، ويكثر القادمون إليها ، والمسافرون منها ،فيستفيد أهلها من ذلك إستفادة كبيرة[٤] . ففى خاناتها[٥] يسكن الحجاج ، ومن

---

(١) الشافعى : الجواهر المعدة فى فضائل جدة ،ورقة ٧ ؛ الفاسى : شفاء الغرام ،جـ١ ،ص٨٧-٨٨ ؛ على بن الحسين : العلاقات الحجازية ،ص١٩٢

(٢) الفاكهى : المنتقى ،ورقة ٤٣-٤٤ ؛ ابراهيم رفعت : مرآة الحرمين جـ١ص٢٣

(٣) ابن جبير : الرحلة ،ص ٤٧-٤٨ ؛ الشافعى :الجوهر المعدة ،ورقة ٧ ؛ على بن الحسين : النشاط التجارى ،ص ٩٦-٩٧ .

(٤) حسنين ربيع : البحر الأحمر فى العصر الأيوبى ، ص ٢٠ .

(٥) خانات : مفردها خان ، اصل الكلمة آرامى وبالفارسى معناها الحانوت واصل معناها البيت . آدى شير : كتاب الألفاظ الفارسية ، ص ٥٨ .

أسواقهـا يشترون ، وفيها وسائل النقل التى تنقلهم الى مكة المكرمـة . وذكر ابن جبير أن جدة كانت تابعة لأمير مكة ، وفيها كانت تؤخذ المكوس مـن الحجاج القادمين إليها . فلما أصبح صلاح الدين الأيوبى سلطاناً لمصـر والشام ، أمر بإسقاط المكوس عن الحجاج ، وعوض أمير مكة عن ذلـك ، لإدراك السلطان الأيوبى أن دخل مكة لا يفي بمصالح أهلها .(١)

إستمرت جدة في النمو في العصر الأيوبى لازدياد مواردها المالية، تبعاً لزيادة عدد الحجاج ، ولازدهار الحركة التجاريـة فيها التى كانـت تنشط في الحج ، وحين قدوم القوافل التجارية إليها من عدن . وفى جـدة إعتاد التجار استبدال سلعهم فى أسواقها ،والتهيوء منها لدخول بيـت اللـه الحرام ومتابعة تجارتهم فى مكة أيضاً ، بعد المكوث فيها فترة مـن الوقت ، ثم السير منها الى الشام .(٢)

وظل ميناء جدة مركزاً هاماً من مراكز تجارة الشرق(٣) طيلة العصـر الأيوبى . وتذكر وثائق الجنيزة ـ على سبيل المثال ـ أن التجار القادمين

---

(١) ابن جبير: الرحلة ، ص ٤٨-٤٩ ، انظر أيضاً :ابن فهد : إتحـاف الورى ، ورقة ٢٤٠ ؛ المقريزى: السلوك ، جـ ١ ، ص ٦٤ ؛ ابـن تغرى بردى: النجوم ، جـ ٦ ، ص ٧٨-٧٩ .

(٢) حسنين ربيع : البحر الأحمر فى العصر الأيوبى ، صـ ٢٠ ؛ وثائق الجنيزة، ص ١٤-١٥ ؛ على بن حسين السليمان : العلاقات الحجازية ، ص ١٩٣ .

(٣) حسنين ربيع : البحر الأحمر فى العصر الأيوبى ، ص ٢٠ .

من بلاد الأندلس أو المغرب ، اعتادوا بيع بضائعهم من الحرير والنحاس وغير ذلك من منتجات بلادهم في مدن مصر والشام . ولكن إذا حدث ولم يصادف هؤلاء التجار نجاحاً أو سوقاً تجارية لبضائعهم هناك ، إتجهوا ببضائعهم الى ميناء جدة حيث يجدون فيها أسواقاً رائجة لتجارتهم.(١)

ومن الموانيء الأخرى التي أسهمت في تجارة البحر الأحمر في العصر الأيوبي ميناء الينبوع " ينبع "(٢). وهي مدينة تنقسم الى قسمين : ينبع النخل ، وينبع البحر . وعندما يطلق المؤرخون المسلمون اسم ينبع فإنهم يعنون بها ينبع النخل ، لأن ينبع البحر كانت قليلة الشهرة إلى أن أصبحت ميناءً للمدينة المنورة ، ومنفذاً لها عبر البحر الأحمر .(٣)

ولقد ظلت الجار(٤) مدينة وثغراً عامراً ، الى أن غشى الحجاز ما غشاه من فتن ومنازعات منذ القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي ، إذ داهم الأعراب وقطاع الطرق ذلك الميناء ، وأخذوا أهله بالنهب والسلب والقتل .

---

(١) حسنين ربيع : وثائق الجنيزة ، ص ١٤-١٥ .

(٢) نعيم زكي : طرق التجارة ، ص ١٤٠ .

(٣) حمد الجاسر : بلاد ينبع ، ص ١٢ ؛ علي بن الحسين : النشاط التجاري ، ص ٩٢ .

(٤) عن الجار : انظر ؛ عاتق البلادي : معجم معالم الحجاز ، حـ١ ، ص ٢١٤ ؛ حـ٢ ص ١٠٤-١٠٨ ؛ على طريق الهجرة ص ٢٠٩-٢١١ .

وأستمر الجار على حاله في عدم الإستقرار ، يستقبل المراكب الواردة من الديار المصرية ، حتى أخذ حجاج مصر والمغرب طريق عيذاب إلى ميناء جدة في أواخر القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي ، فضعف أمر الجار رويداً ثغر ينبع في الازدهار بقدوم عام ٦٢١هـ/ ١٢٢٤ م ، حين جعله حكام مصر من بني أيوب ميناءً رئيسياً للمدينة المنورة بعد جدة . فأصبحت أغلب الغلال والمؤن التي تصل الى المدينة المنورة من مصر ، تصلها عن طريق ميناء ينبع على الساحل الشرقي للبحر الأحمر ، الذي كان يعد ثغراً للمدينة المنورة . وقد أسهم هذا الميناء في إزدهار المدينة المنورة تجارياً منذ أوائل القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي .(١)

وكان لميناء عيذاب على الساحل المواجه لميناء جدة ، دوراً هاماً في تجارة بلاد الحجاز واليمن في العصر الأيوبي (٢) . وقد أصبحت عيذاب في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي من أعظم مراسي العالم بسبب الأعداد الكبيرة من مراكب الهند التي كانت ترسو بها . فضلاً عن أنها كانت الميناء الذي تنتهي إليه قوافل الحجاج الذين يعبرون البحر الى جدة (٣) . وكانت عيذاب مركز تجمع لهم ، ولتجار الشرق القادمين إليها

---

(١) علي بن الحسين : النشاط التجاري ، ص ٩٠ - ٩٥ .

(٢) حسنين ربيع : وثائق الجنيزة ، ص ٢١-٢٢ ؛ البحر الأحمر ، ص ١٧ .

(٣) أحمد دراج : عيذاب ، مقال بمجلة نهضة أفريقية ، ص ٥٥ .

بسلع من الحبشة واليمن[١] . وكان البحارة والتجار يفضلون الرسو فيها ، عند قدومهم إليها أو عند رحيلهم عنها ، وذلك لعمق وغزارة الماء في ميناء عيذاب وخلوه من الشعاب المرجانية التى تعيق الملاحة فى البحر الأحمر.[٢]

وشهد ابن جبير في رحلته الى الأراضى الحجازية سنة ٥٧٩ هـ / ١١٨٣م بأن عيذاب كانت من أحفل مراسى الدنيا لأن مراكب الهند واليمن تحط فيها ، وتقلع منها ، باستمرار بالإضافة الى مراكب الحجاج التى تقصدها دائماً في مواسم الحج .[٣]

وزادت أهمية ميناء عيذاب بازدياد النشاط التجارى فى البحر الأحمر في العصر الأيوبى[٤] . فقد ورد ذكر ميناء عيذاب كثيراً فى وثائق الجنيزة ، خاصة فى وثائق العصرين الفاطمى والأيوبى ، إذ كانت منتجات الشرق وخاصة التوابل تأتي من عدن الى عيذاب ، وكان التجار المسلمون والذميون

---

(١) نعيم زكى : طرق التجارة ، ص ١٤٣ ؛ احمد رمضان : شبه جزيرة سيناء ، ص ١٨٣ .
(٢) حسنين ربيع : البحر الأحمر فى العصر الأيوبى ، ص ١٧ ؛ القوصى : تجارة مصر فى البحر الأحمر ، ص ١٢٨ - ١٣٠ .
(٣) ابن جبير : الرحلة ، ص ٤١ ؛ حسنين ربيع : وثائق الجنيزة ص ٢١-٢٢
(٤) حسنين ربيع : البحر الأحمر فى العصر الأيوبى ، ص ١٧ .

من رعايا المسلمين يدفعون ضريبة الزكاة وضريبة واجب الذمة[1]. أما ضريبة الزكاة فيبدو أن صلاح الدين الأيوبي فرضها سنة ٥٦٧هـ/ ١١٧١م بعد زوال الدولة الفاطمية الشيعية ، وذلك رغبة منه في إعلام الناس أن مذهب السنة قد أعيد تطبيق تعاليمه ، وليعوض الدولة عما أحدثه فيها من إلغاء المكوس الفاطمية .[2]

وقد ذكر ابن جبير في رحلته أن لفظ الزكاة قد تطور معناه ومدلوله ، بحيث صار يطلق على كثير مما لم يكن متبعاً في جباية الزكاة . فقد فرض موظفوا الدولة الأيوبية الزكاة على بضائع المسافرين وأموالهم ، حتى ولو لم يمض عليها الحول الشرعي .[3]

وإعتماداً على كتاب (قوانين الدواوين لابن مماتي) يتبين أن الزكاة والجزية هما الضريبتان اللتان تتم جبايتهما فقط من التجار ففي ميناء عيذاب . ويدلنا هذا على أن التجار المسلمين والتجار من أهل الذمة القادمين من البلاد الإسلامية ، هم فقط الذين كانوا يعملون في تجارة

---

(١) حسنين ربيع : البحر الأحمر في العصر الأيوبي ، ص ١٨ ، وثائق الجنيزة ، ص ٢١ - ٢٢ .

(٢) حسنين ربيع : النظم المالية في مصر زمن الأيوبيين ، ص ٥٤-٥٥ .

(٣) ابن جبير : الرحلة ، ص ١٢-١٣ .

البحـــر الأحمر في العصر الأيوبي . ولم يكن مسموحاً لأى تاجر مـــن المدن الايطاليـة أو من الهند أو الصين أن يبحر شمالاً من عدن [(١)] . ومن عيذاب تحمل القوافل البضائع عبر الصحراء الى مدينة قوص على نهر النيـل، وتعجب ابن جبير من كثـرة القوافل التى تحمل سلع الهند ، وخاصـة أحمال الفلفل ، ويقول فى وصفه بأنه خيل إليه لكثرته أنه يوازى الـــتراب قيمـة [(٢)] .

ولعب تجار الكارمية دوراً هاماً في تجارة بلاد الحجاز في العصـــر الأيوبـي ، وهم فئة من كبـار التجار المسلمين ، اشتغلوا باحتكار تجـارة الهند والشـرق الأقصى فى التوابل والسلع الأخرى ، وكان مركز نشاطهـم الأول في المحيط الهندى واتخذوا قواعد لهم في موانىء ساحل الهنـــد الغربـى ، وفي الخليج العربى وعند مدخل البحر الأحمر ، وأول إشـارة - فى المصادر المتداولة - الى طائفـة تجار الكارميـة الذين لعبوا دوراً ، هاماً في تجارة البحـــر الأحمر فى العصر الأيوبى ، ترجع الى سنـــة ٤٥٦هـ/ ١٠٦٣م ، عندما أشار ابن أيبك الدوادارى الى تأخر التجـــار وإنقطاع الكارم ، زمن الخليفـة المستنصر الفاطمى بسبب حوادث الشـدة

---

(١) Hassanein Rabie: The Financial System, of Egypt, A. H. 564-741, P. 100 .

(٢) ابن جبير : الرحلة ، ص ٣٩ - ٤٠ .

المستنصرية ، وهذا دليل واضح على أن نشاط تجار الكارمية بدأ منذ العصر الفاطمى ، إن لم يكن قبل ذلك ،واستمر طيلة العصر الأيوبى وشطراً من عصر سلاطين المماليك [١]. وقد زادت أهمية هؤلاء التجار المسلمين عندما نجح الأيوبيون فى إقرار نفوذهم في البحر الأحمر، وفي تنظيم شئون التجارة فى اليمن ، وقد سبق أن رأينا أن نشاط هؤلاء التجار قد تعرض للخطر بسبب إمتداد المد الصليبى الى مياه البحر الأحمر،وكيف نجح صلاح الدين فى إحباط محاولات البرنس أرناط العدائية في البحر الأحمر وضد بلاد الحجاز [٢].

وقد إحتكر الكارمية تجارة البحر الأحمر، والمحيط الهندى خاصة فى تجارة التوابل وفى غيرها من البضائع الشرقية التى كانوا يجلبونها عن طريق عدن الى مصر حيث يبيعونها إلى تجار المدن الإيطالية وغيرهم [٣]. ولقد قام الأيوبيون بمثل ما قام به الفاطميون ، من العمل على صد خطر القراصنة في مياه البحر الأحمر، فرصدوا سفناً من أسطولهم خصيصاً لهذه الغاية [٤]. وإن المعلومات التى وصلتنا عن أسباب إنهيار تجارة هذه الطائفة الكارمية لا تزال حتى الآن معلومات ضئيلة . ولا شك أن وثائق

---

(١) حسنين ربيع : البحر الأحمر فى العصر الأيوبى ، ص ١٤ .
(٢) القوصى : تجارة مصر فى البحر الاحمر ، ص ١٧١-١٧٢ ، انظر الفصل الثانى عن حملة أرناط من ص ٤٦ .
(٣) حسنين ربيع : البحر الاحمر فى العصر الأيوبى ، ص ١٤ .
(٤) القوصى : تجارة مصر ، ص ١٧٦ .

الجنيزة تستطيع أن تقدم لنا في مستقبل الأيام معلومات أكثر ، تفسر فيهـا هذه النقاط الغامضة من تاريخ نشاط تجار الكارمية المسلمين فى ميناء جدة[(١)]، خاصة أن ميناء جدة كان مواجهاً لميناء عيذاب الواقع على الساحل الغربي للبحر الأحمر ، بالإضافة الى أنه هناك إحتمال كبير أنهم مارسوا التجارة فى ميناء جدة . الذى يعتبر الميناء الرئيسي لمكة المكرمة وللحجاز عامـة .

أما السلع الواردة الى بلاد الحجاز في العصر الأيوبى ، فكانـت من التوابل خاصة الفلفل ، لضرورة إستخدامه في الطعام ، وكانت العادة المتبعة فى وزن الفلفل فى تجارة البحر الأحمر خلال القرنين الخامس والسادس الهجريين / الحادى عشر والثانى عشر الميلاديين ، هو سعر الحمل إذ كان يتراوح مابين ٥٠ - ١٢٥ ديناراً[(٢)] .

---

(١) حسنين ربيع : البحر الأحمر في العصر الأيوبى ، ص ١٥ - ١٦ ، النظم المالية فى مصر زمن الأيوبيين ، ص ١٦ ؛
Hassanein Rabie: The Financial , System of Egypt P. 97-100 .

(٢) حسنين ربيع : البحر الأحمر ، ص ١٤ ، وثائق الجنيزة ، ص ٢٣-٢٥ ؛ على بن الحسين : النشاط التجارى ، ص ٧ - ٨ ؛ نعيم زكـى : طرق التجارة الدولية ، ص ١٩١ - ١٩٢ .

ومن مثات السلع التى لعبت دوراً هاماً في تجارة مدن الحجاز واليمن في العصر الأيوبى الدارصينى " القرفة "[1] . وكان سعرها يعادل سعر الفلفل أو يرتفع عنه قليلاً ، وكانت التجارة في هذه السلعة مربحة . والقرنفل كان ثمنه ضعف ثمن الفلفل في العصر الأيوبى ، وقد نقله العرب ونقلوا معه الخلنجان (نوع من البهار) من الشرق عبر الخليج الفارسى أو البحر الأحمر .[2]

وأعتبر الزنجبيل فى العصر الأيوبي من أكثر التوابل شيوعاً وإستعمالاً في الحجاز ، ولا يقل في أهميته عن الفلفل والبهار . والراوند أيضاً يمثل أحد السلع الرئيسية ، أضف إليه الكافور والعود الهندى والزعفران والكركم والهال (الحبهان) وجوزة الطيب ، وهى من السلع التى استخدمت كثيراً فى الطب والطعام والمستعملة بكثرة فى العصر الأيوبى .[3]

ولم تقتصر التجارة على التوابل فقط ، إنما شملت العطور والبخور

---

(١) حسنين ربيع : البحر الأحمر فى العصر الأيوبى ، ص ١٤ ؛ وثائق الجنيزة ، ص ٢٣ - ٢٥ ؛ على بن الحسين : النشاط التجارى ، ص ٧-٨ .

(٢) نعيم زكى : طرق التجارة الدولية ، ص ٢٠٤ ؛ حسنين ربيع : البحر الأحمر ، ص ١٤ ؛ وثائق الجنيزة ص ٢٣ ؛ القوصى : تجارة مصر فى البحر الأحمر ، ص ٢١٦ .

(٣) ابن جبير : الرحلة ، ص ٨٦-٨٧ ؛ حسنين ربيع : البحر الأحمر فى العصر الأيوبى ، ص ١٤ ؛ القوصى : تجارة مصر ، ص ٢١٦-٢١٨ ، نعيم زكى : طرق التجارة الدولية ، ص ٢١٥-٢١٩ .

ومن أنواعها : عود الند والمسك وخشب الصندل والعنبر واللادن والمصطكى. وهذه البضائع كانت ترد الى الحجاز في العصر الأيوبي من أسواق الشرق الأقصى وفارس وغيرها ، هذا فضلاً عن الإتجار بالذخائر النفيسة كالجواهر والياقوت وسائر الأحجار الكريمة[1] .

وقد حدثنا ابن جبير عن رحلته الى الأراضي الحجازية فقال :أن هناك قوم من اليمن يعرفون بالسرو يجلبون معهم نوعاً من الزبيب الأسود والأحمر ، كما يجلبون معهم كثيراً من اللوز ، بالإضافة الى الحنطة وبقية الحبوب أضف إليها السمن والعسل وقصب السكر الذى يجلب أيضاً كغيره من البضائع[2] .

وفى العصر الأيوبى كانت القوافل تأتي أسواق مكة من اليمن بمنتجات أفريقية مثل الصمغ والعاج والدقيق والتمر . وبضائع من اليمن نفسها كالجلود والثياب والبخور . وكانت تأتيها قوافل بالمنتجات الشامية والمصرية مثل الزيوت والغلال[3] . كما يباع فى أسواقها منتجات أخرى

---

(١) ابن جبير : الرحلة ،ص ٨٦ ؛ حسنين ربيع : البحر الأحمر فى العصر الأيوبى ،ص ١٥ ؛ نعيم زكى : طرق التجارة الدولية ،ص ٢٢٦.

(٢) ابن جبير : الرحلة ،ص ٨٦- ٨٨ ؛ ٩٨ .

(٣) على بن الحسين: النشاط التجارى ،ص ١٥٠ - ١٥١.

هندية وحبشية وعراقية ويمنية وخراسانية ومغربية [1]. ومن وارداتها أيضاً التي ذكرتها وثائق الجنيزة الحصير إذ كان يعتبر سلعة مطلوبة دائماً في مدن بحر الحجاز [2]. هذه الأنواع الكثيرة من البضائع المتعددة المصادر كانت توجد في أسواق مكة مما يجعلها مزدحمة بالتجار دوماً.

أما عن صادرات الحجاز في العصر الأيوبي ، فلعلها كانت نفس البضائع التى اعتادت القوافل حملها من حاصلات بلاد العرب ، كالزيت والملح والقرظ [3] والصوف والوبر والشعر والجلد والسمن . وكان يصدر الى مصر من بلاد الحجاز : الخيول ، والجمال ، وخشب القس ،والجلود المدبوغة . وتعجب ابن جبير فى أثناء مقامه ببلاد الحجاز ،من بعض قبائل اليمن والتى تعرف بالسرو ـ السابق ذكرهم ـ أنهم لا يبيعون ما يجلبونه من الزبيب واللوز والسكر والبقول والسمن والعسل بالدنانير أو الدراهم ، وإنما كانت عملية البيع تتم بمبادلة هذه البضائع بما يقدمه لهم أهل مكة بديلاً لها من الخرق والعباءات والأقنعة والملاحف المتان وما يشابه ذلك مما يلبسه الأعراب [4].

---

(١) ابن جبير : الرحلة ،ص ٨٦ - ٨٧.

(٢) حسنين ربيع : وثائق الجنيزة ،ص ٢٥ .

(٣) القرظ : ورق شجر السلم. انظر لسان العرب "قرظ" جـ ٧ ، ص٤٥٤.

(٤) ابن جبير : الرحلة ،ص ٩٨ - ٩٩ .

أما عن الضرائب والمكوس وطرق جبايتها في بلاد الحجاز في العصر الأيوبي فيلاحظ أنه كانت تطلق كلمة " المكس " على الجباية ، كما تطلق على كل ما يأخذه العشار (الماكس)[١] ، وهي ليس لها سند شرعي ، إنما توارثوا فرضها من عصور سابقة . ولم يقتصر الأمر على تحصيل الزكاة من التجار المسلمين ، بل فرض عليهم ضرائب أخرى عرفت باسم المكوس .[٢]

وكان " المكس " قبل عصر صلاح الدين يؤخذ من الحجاج والتجار بعيذاب ، وإن لم يجب منهم في عيذاب جبي في جدة[٣] . وذكر ابن جبير أن مقدار مكس الحاج الذي كان يجبى في عيذاب في عهد الفاطميين سبعة دنانير ونصف الدينار من الدنانير المصرية[٤] . أما من لم يؤد هذا المكس فكان يمنع من الحج والتجارة ، ويعذب بشتى أنواع العذاب .[٥]

ومن المعروف أن صلاح الدين الأيوبي ألغى معظم المكوس الفاطمية التي كانت تجبى في مصر مرة واحدة تقريباً في سنة ٥٦٧هـ/ ١١٧١م .عندما كان لا يزال نائباً عن نور الدين محمود في مصر . أما عدد تلك المكوس الملغاة

---

(١) علي بن الحسين : العلاقات الحجازية ، ص ١٦٠ ، ابراهيم رفعت : مرآة الحرمين ، جـ ١ ، ص ٦٩ .

(٢) القوصي : تجارة مصر ، ص ٢٣٢ ، حسنين ربيع : النظم المالية ، ص ٥٠ .

(٣) علي بن الحسين : العلاقات الحجازية ، ص ١٦٠ .

(٤) ابن جبير : الرحلة ، ص ٢٨-٢٩ .

(٥) المقريزي : السلوك ، جـ ١ ، ص ٦٤ .

فكان ٨٨ مكساً وجملة حصيلتها فى السنة مائة ألف دينار . ولم يبق من المكوس الفاطمية بعدئذ سوى مكس الحاج ، الذى ألغاه كذلك صلاح الدين سنة ٥٧٢هـ/١١٧٦م [١] ، إذ حج الشيخ علوان الأسدى الحلبى فى تلك السنة ، وكان ذا صلة وثيقة بصلاح الدين الأيوبى ، فلما طلب منه دفع المكس أبوهم بالعودة دون أن يؤدى فريضة الحج ، فخشى الأشراف عاقبة الأمر ، ولاطفوه وبعثوا الى والى مكة مكثر بن عيسى يخبرونه بأمر الشيخ علوان فأمر بإطلاق سراحه ، وإعفائه من المكس . ولما قدم الشيخ مكة إجتمع به مكثر وشكى له (بأن دخل مكة لا يفي بمصالح أهلها وهذا ما يضطره الى أخذ المكوس) [٢] . فكتب الشيخ علوان بذلك الى صلاح الدين . وقد عوض صلاح الدين أمير مكة مكثر بن عيسى فجعل له فى كل سنة ألفي دينار ، وألف إردب قمح ، عدا عن عدة قطاع فى صعيد مصر واليمن ، وقيل أن مجموع ذلك يعادل ثمانية آلاف إردب قمح تحمل إليه حتى جده ، وذلك تعويضاً له عن تلك المكوس التى ألغاها [٣] .

---

(١) أبوشامة : الروضتين ، جـ١ ، ص ٢٠٥ ؛ حسنين ربيع : النظم المالية فى مصر زمن الايوبيين ص ٥٠ ؛ العرينى : مصر فى عصر الايوبيين ، ص ٢١٥ ؛ أحمد دراج : عيذاب ، ص ٦٠ .

(٢) ابن فهد : إتحاف الورى ، ورقة ٢٤٠ ؛ ابراهيم رفعت : مرآة الحرمين ، جـ١ ، ص ٦٩ ؛ على بن الحسين ، العلاقات الحجازية ، ص ١٦٠ .

(٣) ابن فهد : إتحاف الورى ، ورقة ٢٤٠ ؛ سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص ٢١٤ ؛ المقريزى : الخطط جـ ٢ ، ص ٢٣٣ ؛ ابن تغرى - بردى : النجوم ، جـ ٦ ، ص ٧٨-٧٩ ؛ ابو شامة : الروضتين ، جـ٢ ، ص ٣ - ٤ ؛ احمد بيلى : حياة صلاح الدين ، ص ١٩٩-٢٠٠ ؛ على بن الحسين : النشاط التجارى ، ص ١٠٣-١٠٤ .

ويبدو أن بعض تلك المكوس التي ألغاها صلاح الدين ، أعيد فرضها في عهد الدولة الأيوبية بعد وفاته . فقد فرض الملك العادل الثاني سيف الدين أبو بكر بن الملك الكامل سنة ٦٣٥هـ/١٢٣٧م المكوس حين تولى السلطنة ،بالاضافة الى أن خلفاء صلاح الدين الأيوبي أهملوا إرسال ما التزم به صلاح الدين نحو بيت الله الحرام ، فما كان من الشريف أن عاد سيرته الأولى في جباية المكوس من الحجاج والتجارة .[1] غير أنه في سنة ٦٣٩هـ/١٢٤١م ألغيت ثانية المكوس التي فرضها خلفاء صلاح الدين الأيوبي ، من قبل صاحب اليمن المنصور عمر بن رسول . وكتب بهذا الالغاء مربعة[2] جعلت قبالة الحجر الأسود على زمزم ،الى أن نزعها محمد ابن أحمد بن المسيب اليمني ، وكان ذلك سنة ٦٤٦هـ/١٢٤٨م.[3]

---

(١) القوصي : تجارة مصر في البحر الأحمر ،ص ٢٣٧ ؛ علي بن الحسين : العلاقات الحجازية ،ص ١٦١.

(٢) المراد بها : رقعة : بامخرمه : تاريخ ثغر عدن ،ج٢ ، ص١٧٨.

(٣) ابن فهد : إتحاف الورى ،ورقة ٢٥٥-٢٥٧ ؛ المقريزي : السلوك ج ١ ،ص ٣٣٢ - ٣٣٣ ؛ يحيى بن الحسين : غاية الأماني ، ج ١ ، ص ٤٣١ ؛ بامخرمة : تاريخ ثغر عدن ،ج ٢ ،ص ١٧٨.

وقد أعانتنا وثائق الجنيزة في إلقاء الضوء على النظم المالية التي سادت موانئ بلاد الحجاز واليمن خلال العصر الأيوبي ، مثل أنواع الضرائب المختلفة التي كانت تفرض في مدن وموانئ البحر الأحمر ، وطرق جباية هـذه الضرائب ، وأنواع النقود المتعامل بها . وهذه معلومات هامة لدراسة التاريخ الاقتصادي لموانئ الحجاز واليمن في هذه الفترة ، نظراً لقلة المصادر العربية التي تعالج هذه الموضوعات الاقتصادية .(١)

أما المكوس التي كان يدفعها التجار بجدة ، فمن شأنها أن تؤمن طريقهم الى مكة المكرمة ، وتحقق لهم الحماية والأمان سواء أقاموا بجدة أو انتقلوا الى مكة. وفي جدة أيضاً كانت تؤخذ المكوس من الحجاج الوارد ين بطريق البحر . ولأن جدة كانت تتبع أمير مكة فقد كانت تلك المكوس والعشور جميعها يقوم بتحصيلها بميناء جدة والى من قبل أمير مكة. يقبض صدقاتها ولوازمها ومكوسها وعشورها ويحرس عمالتها .(٢)

---

(١) حسنين ربيع : وثائق الجنيزة ، ص ٢٤ - ٢٥ .

(٢) علي بن الحسين : النشاط التجاري ، ص ١٠٣ - ١٠٤ ، العلاقات الحجازية ، ص ١٩٢ .

أما من ناحية الزراعة بإقليم الحجاز عامة ، فكانت تعتمد على المطر أو ماء العيون ،ومن أهم حاصلاتها : البر والشعير والذرة ، وفواكه الرطب ، والعنب ، والموز[١] . أما مكة المكرمة فيتضح لنا أنها ليست بلداً زراعياً ،فهى منطقة مجدبة غير صالحة للزراعة ،تتميز بالجفاف وارتفاع الحرارة وليس بها شجر غير شجر البادية .[٢] أما المناطق المجاورة لها ، وبخاصة منطقة الطائف والوديان الموجودة بين مكة وجدة ، فكانت تنبت مختلف النباتات ، وإن هذه المناطق الزراعية كانت تمد مكة بما تحتاجه من هذه المزروعات . وقد كان لأهل مكة بعض المزارع والحدائق التى يمتلكونها بمنطقة الطائف . كما كان لهم خبرة فى تربية الماشية من إبل وغنم وأبقار ، وكانوا يرعونها في الوديان والشعاب المجاورة لمنطقة مكة المكرمة.[٣]

أما المدينة المنورة فكانت تقع في منطقة خصبية ،لذا عمل أهلها بالزراعة ، وساعدهم على ذلك وفرة العيون والآبار فيها ،فكثرت حولها حدائق النخل الأنيقة ،ويعتبر التمر أهم حاصلاتها الزراعية ، إن لم يكن هو محصولها الزراعى الأساسي ، وتتنوع أصنافه المتميزة من حيث الجودة،أضف

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ،جـ٤ ،ص ٢٤٧ ؛ على بن الحسين : النشاط التجارى ،ص ٨٣ .

(٢) ابن حوقل : صورة الارض ،ص ٣٧ ،ابوالفدا : تقويم البلدان ، ص ٨١ .

(٣) أحمد الشريف : مكة والمدينة ،ص ٢١٧-٢١٨ .

الى أنه أيضاً من أهم المواد المصدرة في تجارة المدينة المنورة [١]، وتعتبر الزراعة ميزة للمدينة المنورة ،فهي توفر لسكانها الجزء الأكبر من حاجتهم الغذائية ، أما الذي يفيض عن حاجتهم من الثمار والخضار فكان أهل المدينة المنورة يبادلون بها تجارياً مدن الحجاز الأخرى [٢] .ولم يقتصر نشاط المدينة التجاري على النحو السابق ،إنما كان أهلها يتجرون مع الحجاج والتجار الذين يفدون من مكة للزيارة قبل أو بعد إنقضاء موسم الحج [٣].

وفي أسواق المدينة المنورة كان يباع الحطب الذي يجلبه الحطابون من أشجارها [٤]. ويعتبر التمر -كما سبق القول- بالنسبة للمدينة المنورة سواء في العصر الأيوبي ،أو في العصور التي سبقته أو لحقته ، الغلة الرئيسية إذ تنبثق عنه عوائد إقتصادية فرعية ،فإلى جانب التمر كطعام ،يعتبر النوى علفاً لإبلهم ، وهذا مما يميز إبل المدينة. واستخدم سكان المدينة جريد النخل في سقف المنازل وعملوا من خوصها المكاتل والقفف ، والمكانس والحصير والأطباق ،والمراوح ،واستخدموا جذوعها أعمدة لبيوتهم تحمل سقوفها .

(١) ابن النجار : الدرة الثمينة ، ورقة ٨٨ ؛
القلقشندي : صبح الأعشى ،ج ٤ ،ص ٢٨٩ ؛ علي بن الحسين :النشاط التجاري ،ص ٩٠-٩١ ؛ العلاقات الحجازية ،ص ١٨٠ ؛ سليمان مالكي: مرافق الحج ،ص ٤٣ .

(٢) سليمان مالكي : مرافق الحج ،ص ٤٣ ؛ علي بن الحسين : العلاقات الحجازية ص ١٨٠ ؛ احمد الشريف : مكة والمدينة ،ص ٣٥٥ - ٣٥٦ .

(٣) علي بن الحسين : العلاقات الحجازية ،ص ١٨٠ .

(٤) احمد الشريف : مكة والمدينة ،ص ٣٥٥ - ٣٥٦ .

فالنخلة من أكرم الأشجار عليهم .(١)

ولما كانت أشجار النخيل تزرع متفرقة وتترك بينها مساحات خالية ، فكان ذلك فرصة لقيام زراعات محصولية أخرى . وتلك حقيقة مازالت قائمة في زراعات النخيل في العصر الأيوبي وماقبله . وأهم ما كان يزرع في تلك المساحات الشعير ، وكان عليه إعتماد أهل المدينة بعد التمر ، وكان محصوله يسد جانباً كبيراً من إحتياجهم الى الحبوب . والى جانب هاتين الغلتين الرئيسيتين توجد في المدينة محاصيل أخرى ، لكنها أقل في الكمية من التمر والشعير ، كالقمح والكروم . وبعض أنواع الفاكهة الأخرى كالرمان والليمون وقليل من القثاء والبقول أضف إليها بعض المحاصيل الأخرى .(٢)

ومن الملاحظ أن هذه المحاصيل الزراعية ، كانت موجودة في العصر الإسلامي الأول ، واستمرت حتى العصر الأيوبي وما بعده ، ويدلنا على استمرارها في العصور السابقة وجودها حتى يومنا هذا .

أما عن الصناعات في بلاد الحجاز في العصر الأيوبي فالمعلومات التي وصلتنا عنها قليلة متناثرة ، ويستطيع الباحث أن يستشفها بين السطور ، ولا تزال

---

(١) سليمان مالكي : مرافق الحج ، ص ٤٣-٤٤ ؛ احمد الشريف : مكة والمدينة ، ٣٥٧ - ٣٥٨ .
(٢) سليمان مالكي : مرافق الحج ، ص ٤٤-٤٥ ؛ احمد الشريف ، مكة والمدينة ، ص ٣٥٧ - ٣٥٨ .

كثير من الصناعات التي ورد ذكرها في العصر الإسلامي الأول مستمرة حتى يومنا هذا ، وهذا ما يدلنا على أنها كانت موجودة في العصر الأيوبي .

ومن المعلوم أن العمران يقتضي قيام الصناعات المتعلقة بالمباني من نحت حجارة وصناعة أبواب وغيرها ، والحاجة الى الآلات الزراعية مثل الفئوس والمحاريث والمساحي والمناجل وغيرها مما أدى الى قيام صناعة هذه الآلات في بلاد الحجاز . وهذه الآلات الزراعية تعتبر من أهم الصناعات التي كانت تصنع في المدينة المنورة ، وتباع في أسواقها . وبما أن زراعة النخيل موجودة بكثرة في هذه المنطقة فقد قامت أيضاً صناعات من سعف النخيل مثل الزنابيل والحبال وغيرها من نواتج النخيل.(١) ومن الصناعات الهامة التي ورد ذكرها كثيراً في وثائق الجنيزة صناعة الحصير الذي كان مستخدماً في كل منزل وفي كل مكان ، وتحدثنا هذه الوثائق -كما سبق القول- بتفاصيل كثيرة عن صناعة الحصر وصفاته وأسعاره (٢) . وكذلك كانت توجد صناعة النجارة اللازمة للبيوت من أبواب ونوافذ وأثاث ، وقد أعان على قيام الصناعات الخشبية وجود شجر الطرفاء والاثل في منطقة الغابة في شمال غربي المدينة .(٣) ومن الصناعات المشهورة في المدينة صناعة الفخار ، وكانت

---

(١) سليمان مالكي : مرافق الحج ، ص ٤٧ .
(٢) حسنين ربيع : وثائق الجنيزة ، ص ٢٤-٢٥ .
(٣) احمد الشريف : مكةوالمدينة ، ص ٣٧٦-٣٧٧ ، سليمان مالكي : مرافق الحج ، ص ٤٦-٤٧ .

موجودة منذ الجاهلية ولا زالت مستمرة حتى وقتنا هذا .[١]

وقد أورد ابن جبير فى خلال رحلته فى الأراضى الحجازية عن بعض أنواع اللبن فى مكة المكرمة ، بالإضافة الى صناعة السمن . واستطرد ابن جبير فى وصفه فتحدث عن صناعة بعض أنواع الحلوى التى تتم صناعتها فى مكة المكرمة خلال العصر الأيوبى . وهذه الحلوى كانت تصنع من العسل والسكر المعقود مضافين الى جميع الفواكه من رطبة ويابسة .[٢]

وإلى جانب هذه الصناعات كانت هناك صناعات أخرى ، إستمرت منذ العصور الإسلامية الأولى الى مابعد العصر الأيوبى . منها صناعة الحلي مثل : الخواتم والخلاخيل والعقود ، واستخدموا فى صناعتها الذهب والمجوهرات والأحجار الكريمة[٣] ، وصناعة الأسلحة والدروع والسيوف والنبال ومعظمها يصنع فى المدينة المنورة . وبالإضافة الى صناعة الأسلحة الحربية إهتموا بصناعة الآلات الخاصة بالصيد مثل الفخاخ والشباك وغيرها.[٤]

أما عن دار الضرب بمكة المكرمة والنقود بأنواعها ،ففي أواخر القرن

---

(١) ياقوت الحموى : معجم البلدان ،جـ ٢ ،ص ١١٧ .
(٢) ابن جبير : الرحلة ، ص ٨٧-٨٨ .
(٣) سليمان مالكى : مرافق الحج ،ص ٤٧ .
(٤) احمد الشريف : مكة والمدينة ،ص ٣٧٨ .

السادس الهجرى/ الثاني عشر الميلادى ألمت بالدنانير والدراهم ضائقة ، حدثنا عنها المقريزى ، ومؤداها أن الذهب والفضة إختفيا من مصر ، عند سقوط خلافة الفاطميين وقيام دولة الأيوبيين . وأثر هذا بالتالي على قيمة العملة الأيوبية .[1] وقد ذكر المؤرخون أن صلاح الدين عمل على رفع قيمة العملة، لإنقاذها من الحالة المتردية التى وصلت إليها ، فأمر فى سنة ٥٨٣ هـ/ ١١٨٧م بضرب دراهم من خليط معدنى نصفه من الفضة ونصفه الآخر من النحاس ، وقد سميت هذه الدراهم بالدراهم الناصرية.[2] أضف الى ذلك فقد أمر صلاح الدين ببناء داراً لضرب النقود باسمه فى مكة المكرمة[3] واستمر الحال على هذا الاضطراب النقدى العام طيلة حكم السلطان صلاح الدين ،ومن جاء بعده من سلاطين البيت الأيوبى . لذا لم يكن هناك بد من ضرب نقود جديدة ، غير أن هذا لم يحدث الا فى عصر السلطان الكامل بن العادل . فقد أمر فى سنة ٦٢٢هـ/ ١٢٢٥م بضرب دراهم مستديرة سماها الدراهم الكاملية .[4] ولقد ذكر القلقشندى فى كتابه " صبح الأعشى " أن المعاملات النقدية التي كانت تتم فى الحجاز خلال العصر الأيوبى ، كانت كالمعاملات النقدية فى الديار المصرية ،والديار الشامية

---

(١) المقريزى : السلوك جـ ١ ، ٤٦-٤٧ ؛ عبد الرحمن فهمى ،النقود العربية،ص ٧

(٢) حسنين ربيع : النظم المالية ،ص٩٨-٩٩ ؛ القوصى : تجارة مصر ، ص ٢٤٩-٢٥٠ ؛عرفت هذه الدراهم الناصرية فى مصر ،وبالزيوف" أى الزائفة، انظر عبد الرحمن فهمى : النقود العربية ،ص ٧٣ .

(٣) السباعى : تاريخ مكة ، جـ ١ ،ص ٢٤٤ .

(٤) حسنين ربيع : النظم المالية ،ص ٩٩ - ١٠٠ .

من حيث التعامل بالدنانير والدراهم النقرة .(١)

وكانت هناك دراهم أخرى متعامل بها في مكة المكرمة في سنة ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م ، وهي من فضة خالصة ، مربعة الشكل ، زنتها نحو نصف ، ثم نقص حتى إنخفض الى السدس . وهذه الدراهم تعرف بالدراهم المسعودية نسبة الى الملك المسعود صاحب اليمن .(٢)

هذه لمحة عن الأحوال الإقتصادية في بلاد الحجاز في العصر الأيوبي .

—•—

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ٤ ، ص ٢٧٥ ؛ عبد الرحمن فهمى : النقود العربية ، ص ٧٣ .

(٢) ابن فهد : إتحاف الورى ، ورقة ٢٥٣ ؛ القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ ٤ ، ص ٢٧٥ - ٢٧٦ .

الفصل الرابع

الحياة الاجتماعية فى بلاد الحجاز فى العصر الأيوبى

- طبقات المجتمع.
- الأعياد والمواسم الدينية والاحتفالات العائلية
- الأطعمة والأشربة والملابس.
- النشاط العمرانى والخدمات الاجتماعية.

كانت مكة المكرمة فريدة في تركيبها الإجتماعي ، من بين جميع مدن العالم ، نظراً لمركزها الديني عند المسلمين ، حتى صار سكانها الأصليون قلة ، وسط جموع الوافدين التي تتدفق كل عام على مكة في موسم الحج ، وأستقر في العاصمة المقدسة عائلات وأفراد يتجبرون أو يجاورون أو يتعلمون . وعلى مر القرون إزداد الغرباء الوافدون زيادة كبيرة ، وقل عدد الأهالي الأصليين ، تبعاً لتضخم المدينة بالأعداد الهائلة ، التي ترد إليها وتستقر فيها لأغراض مختلفة . وكان بناء المجتمع المكي في العصر الأيوبي متبايناً ، وبرزت فيه عدة طبقات يمكن أن نلخصها على النحو التالي :

أ - الأمراء :

كان شرفاء مكة أيام الأيوبيين من بني فليتة ، فقد تولى إمرة مكة المكرمة عيسى بن فليتة منذ سنة ٥٥٦هـ/١١٦٠م [١] . وتولى حكم مكة أفراد من هذا البيت حتى سنة ٥٩٧ هـ/ ١٢٠٠م ، عندما انتزع حكم مكة أبو عزيز بن قتادة بن إدريس الحسني ، من حاكمها مكثر بن عيسى بن فليتة منذ سنة ٥٩٧هـ/١٢٠٠ م فقد خرج في هذه السنة أبو عزيز بن قتادة

---

(١) ابن فهد : إتحاف الورى ، ورقة ٢٣٧ ؛ ابن ظهيرة : الجامع اللطيف ، ص ٣٠٨-٣٠٩ .

على رأس قومه من قرية العلقمية . فأستولى على ينبع ومكة المكرمة ، وأسقط دولة الهواشم من بنى فليتة .[(١)]

وحكم بنو قتادة الحسنيون مكة المكرمة منذ سنة ٦٠١هـ/ ١٢٠٤ م ، وكونوا في مكة المكرمة طبقة من طبقاتها . وقد توارث الحسنيون أمارة مكة ، وصارت لهم عصبية تحميهم .

ب - سكان مكة الأصليون :

كان سكان مكة المكرمة من بطون قريش ، التى بقيت بمكة بعد الزحف الإسلامي لبلاد الشام والعراق في العصر الإسلامى الأول ، بالإضافة الى إستقرار بعض القبائل والعشائر البدوية بجوار قريش . وشكل هؤلاء المكيون الأصليون بين الربع والثلث من مجموع القاطنين بمكة المكرمة فى العصر الأيوبى .[(٢)]

---

(١) ابن فهد : إتحاف الورى ، ورقة ٢٤٥ ؛ الطبرى : الأرج المسكى ، ورقة ٢٦٣-٢٦٤ ؛ الفاسى : تحصيل المرام ، ورقة ٨٤-٨٥ ؛ شفاء الغرام ، جـ٢ ، ص ١٩٨ - ١٩٩ ؛ العقد الثمين ، جـ ٧ ، ص٣٩-٤٠
وقرية العلقمية : هى إحدى قرى وادى ينبع ، الفاسى : العقد الثمين ، جـ٧ ، ص ٤٠ .

(٢) على بن الحسين : العلاقات الحجازية ، ص ٢٠٧ - ٢٠٨ .

وكانت بمكة المكرمة بعض العائلات العريقة برزت بعلمها أكثر من بروزها بنسبها ، وهذه العائلات ليست مكية صميمة بل بدأت الإستقرار في القرنين السادس والسابع الهجريين / الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين . ومن هذه العائلات آل النويري وآل ظهيرة وإستقروا بمكة وصاروا جزءاً من المجتمع المكي ، وتقلدوا مناصب سامية فيها ، وبرزوا في المجالات الإجتماعية والعلمية . وكانت لهم صلات متينة بأمراء مكة المكرمة وسلاطين مصر .(١)

جـ - المجاورون بمكة :

هم المسلمون الذين قدموا من مختلف الأقطار الإسلامية ، الى مكة المكرمة على مر السنين ، قبل وخلال العصر الأيوبي ، إحتماء بحرم الله ، وإبتغاء لفضل الله ورضوانه ، وقصد التجارة للدنيا والآخرة .(٢) وما لبثوا أن إستقروا فيها ، وإندمجوا في مجتمعها ، حتى صاروا يشكلون جزءاً منه .

وتمدنا وثائق الجنيزة بأخبار كثيرة ، عن دراسة الحياة الإجتماعية لسكان مدن الحجاز واليمن ، في العصور الوسطى ، وخاصة في العصر

---

(١) على بن الحسين : العلاقات الحجازية ، ص ٢٠٨ .
(٢) ابراهيم رفعت : مرآة الحرمين ، جـ ١ ، ص ٢٠١ .

الأيوبى . فمن المعروف أن هذه المدن وفد إليها تجار مسلمون من بلاد ومدن بعيدة مثل : برقة وطرابلس والقيروان والمهدية والمغرب وتلمسان.(١)

د ـ أغوات(٢) الحرمين :

هم الذين يقومون بخدمة الحرمين الشريفين ، وأول من استخدمهم في هذا الغرض صلاح الدين يوسف بن أيوب في أيام ولايته .

وقد كان القائمون على خدمة الكعبة الشريفة والحجرة النبوية قبل العصر الأيوبى ، أمراء مكة المكرمة والمدينة المنورة وولاتها ، وكانوا هم المسئولون عن كل قصور يحصل من خدم المسجد الحرام والمسجد النبوى ، أمام الخلفاء والملوك(٣) . يضاف الى ذلك جماعات الفقهاء والصوفية وأهل العلم والفضل الذين كانوا يقومون أيضا بخدمة الحرمين الشريفين .(٤)

وقد وصف ابن جبير فى رحلته الى بلاد الحجاز في عهد صلاح الدين آغوات الحرمين بقوله " وسدنته فتيان أحابيش ، وصقالب ظراف الهيئات

---

(١) حسنين ربيع : وثائق الجنيزة ، ص ٢٥ .
(٢) آغوات : جمع آغا ، المقصود بها خدام سيد السادات عليه أفضل الصلاة والسلام .عبد الرحمن الانصارى : تحفة المحبين والأصحاب ، ص٥٣
(٣) عباس كراره : تاريخ الحرمين ، ص ٢٨ .
(٤) عبد الرحمن الانصارى : تحفة المحبين والأصحاب ، ص ٥٤ .

نظاف الملابس والشارات ".[١]

وقد أوقف صلاح الدين يوسف بن أيوب - الذى وضع قاعدة الخدام في الحرم النبوى - عليهم الأوقاف. وتذكر المصادر والكتب التاريخية أن كتاب الوقف موجود عندهم حتى الآن. وكان الموقوف عليهم نحو عشرين خادماً، رسميين بمكة المكرمة ثم من بعدهم خدام الحرم النبوى.

ومن وظائف هؤلاء الخدام، حفظ المسجد النبوى نهاراً، وقفل أبوابه وحراسته ليلاً ولا يبيت في المسجد النبوى إلا الفراش ليطفئ القناديل ويفتح الباب للمؤذن. ومن الأعمال الأخرى لهؤلاء الجماعة، تنزيل القناديل لطئها بالوقود ومسحها ثم تعليقها مرة أخرى، وإسراج ما يوقد منها في السحر، والدوران بعد صلاة العشاء بالفوانيس، وكنس المسجد والروضة والحجرة كل جمعة. وفرش بساط أمير المدينة، وإيقاد البخور بالمسجد أيام الجمع.[٢]

أما التركيب الإجتماعى للمدينة المنورة فكل مايمكن أن يقال عنه أنه كالتركيب الاجتماعى بمكة المكرمة. وأكثر سكانها الوافدين كانوا من

---

(١) ابن جبير : الرحلة، ص ١٥٣؛ أنظر السخاوى : التحفة اللطيفة جـ ١، ص ٤٩.

(٢) السخاوى : التحفة اللطيفة، جـ١، ص ٤٩-٥٠؛ عبد الرحمن الانصارى : تحفة المحبين، ص ٥٥-٥٦.

الهنود والأتراك ومن أهل الشام ومصر . وشملت سيطرة هؤلاء الوافدين على المدينة المنورة الكثير من شئونها .

أما عن الأعياد والمواسم الدينية والإحتفالات العائلية في الحجاز في العصر الأيوبى ، فقد كان لأهل مكة إحتفالات دينية متعددة في مختلف المناسبات ، فهم يحتفلون بإستهلال الشهور الهجرية ، وعادتهم في ذلك أن يأتى أمير مكة في أول يوم من أيام الشهر يحف به كبار رجاله ، وهو يرتدى الملابس البيضاء ، ويتقلد سيفه ، وعليه السكينة والوقار ، فيصلى عند مقام ابراهيم ركعتين ، ثم يقبل الحجر الأسود ، ثم يطوف حول الكعبة سبعة أشواط ، وكلما أكمل الأمير شوطاً واحداً ، كان يتجه لتقبيل الحجر الأسود . وعندها يرتفع صوت رئيس المؤذنين - الذى يقف أعلى قبة زمزم - بالدعاء للأمير ، وتهنئة بدخول الشهر ، رافعاً بذلك صوته بدعاء يستفتحه بقوله : ((صبح الله مولانا الأمير بسعادة دائمة ونعمة شاملة)) . ثم يتابع دعاءه بتهنئته بقدوم الشهر ، بكلام مسجوع مطبوع حافل بالدعاء والثناء . ثم يختتم ذلك بثلاثة أو أربعة أبيات من الشعر في مدحه ومدح سلفه الكريم .(١)

---

(١) ابن جبير : الرحلة ، ص ٦٧ ؛ ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٥٧ ؛ على بن الحسين : العلاقات الحجازية ، ص ٢١٣ .

وكان أهل مكة يحتفون بظهور هلال رجب ، هذا الشهر المبارك الذى يعتبر أهل مكة قدومه موسم من المواسم العظيمة ،وهو أكبر أعيادهم وأحد الأشهر الحرم (١) . وقد ذكر ابن جبير أن أهل مكة يعتبرون العمرة في شهر رجب تعادل وقوف عرفة ، لذا فإنهم يحتفلون بها إحتفالاً لا مثيل له . وقد وصف لنا أهل مكة في إستهلالهم شهر رجب ،وكان ذلك في ليلة خميس . فقال : يخرج أهل مكة في تلك الليلة الى التنعيم ميقات المعتمرين - وكل يتأنق ويحتفل قدر إستطاعته ،وترى الهوادج منتشرة في بطاح مكة وشعابها وتحتها الإبل قد زينت بأبهى أنواع الزينة . وبعد قضاء العمرة يذهب أهل مكة للسعي بين الصفا والمروة ،فيزدحم المسعى بالساعيات على هوادجهن والساعين. وفي تلك الليلة يتلألاء المسجد الحرام بالأنوار . وعند ثبوت رؤية الهلال لدى الأمير ،يأمر بضرب الطبول والدبادب والأبواق إشعاراً بأنها ليلة الموسم (٢) .

ويتابع ابن جبير وصف إحتفال أهل مكة بصبيحة ليلة الخميس الليلة التى أُستهل بها شهر رجب ،فيذكر أن أهل مكة يخرجون جميعهم ، حسب مراتبهم ، قبيلة قبيلة وحارة حارة ،حاملين الأسلحة فرساناً ورجالاً ،فالفرسان يلعبون بالأسلحة وهم فوق صهوات جيادهم ، والراجلون يتواثبون ويتبارون

---

(١) ابن جبير : الرحلة ،ص ٩٥ .

(٢) ابن جبير : الرحلة ،ص ٩٥-٩٦ .

بالأسلحة في أيديهم حراباً وسيوفاً و حجفاً ، وهم يظهرون فنوناً من التطاعن بالحراب والتضارب بالسيوف والمدافعة بالحجف التي يستجنون بها [١]. وكانوا يرمون بالحراب الى الهواء ويبادرون إليها تلقفها أيديهم ولا يزالون في هذا الى أن يخرج الأمير اليهم فيستمر الإحتفال بين يدى الأمير الى أن يصل ركبهم الى المسجد الحرام ، فيطوف الأمير بالكعبة ، ثم يصلى بعد ذلك عند الملتزم ثم يخرج من باب الصفا الى المسعى .

وكانت العمرة تتصل في هذا الشهر كله وتستمر معها إحتفالات أهل مكة بالعمرة في الليل والنهار ، وعند الرجال والنساء ، وكلها قريبة من إحتفالهم بالليلة العظيمة التى استهل بها شهر رجب ، ليلة الموسم عند أهل مكة [٢].

وفى اليوم السابع والعشرين من شهر رجب ، يحتفل أهل مكة منذ صبيحتها إحتفالاً عظيماً ، ويسمون العمرة فيها عمرة الأكمة ، لأنهم يحرمون فيها من أكمة أمام مسجد عائشة رضى الله عنها ، والأصل في هذه العمرة أنهم يحتفلون بذكرى إتمام بناء البيت أيام عبد الله بن الزبير . وبقيت

---

(١) ابن جبير : الرحلة ، ص ٩٦ - ٩٧ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٠١

هذه العمرة سنة عند أهل مكة في اليوم نفسه وعلى تلك الأكمة بعينها .[١]

وفي اليوم التاسع والعشرين من رجب يفتتح بيت الله الكريم وللنساء خاصة ، فتحتفل نساء مكة في ذلك اليوم إحتفالاً عظيماً ، فهو عندهن يوم الزينة المشهور المستعد له .[٢] وذكر ابن جبير أيضاً : أن أهل مكة المكرمة ، اعتادوا زيارة المدينة المنورة في شهر رجب .[٣]

أما ليلة النصف من شهر شعبان ، فهي من الليالى المعظمة عند أهل مكة المكرمة ، إذ يبادرون فيها الى أعمال البر ويعتمرون ويجتمعون في المسجد الحرام فيقومون بالطواف والصلاة جماعات وافراداً . وقد تحدث ابن جبير وابن بطوطة ، عن هذا مما يدل على أن هذه العادة التي كانت في العصر الأيوبى ، إستمرت لقرون طويلة حتى العصر المملوكى ، وربما بعد ذلك .[٤]

واذا أهلّ هلال شهر رمضان كانت الطبول والدبادب تضرب عند أمير مكة ، ويبدأ الإستعداد للإحتفال في المسجد الحرام من تجديد الحصر

---

(١) ابن جبير : الرحلة ، ص ١٠٢ .
(٢) المصدر السابق ، ص ١٠١ .
(٣) المصدر السابق ص ١٠١ .
(٤) ابن جبير : الرحلة ، ص ١٠٦-١٠٨ ؛ ابن بطوطة : الرحلة ، ص ١٦١ .

وتكثير الشمع والمشاعل حتى يتلألأ الحرم نوراً ،ويسطع بهجة واشراقـاً ، وتتفرق الأئمة فرقاً لإقامة صلاة التراويح . ويتخذ إمام كل مذهب من المذاهب الأربعة ناحية من نواحى المسجد الحرام ، فالشافعية تتخذ لها ناحية من المسجد بعد أن تنصب لها إماماً ، وكذلك أصحاب المذاهب الأخرى كالحنابلة والأحناف والزيدية . أما المالكية فكانت تجتمع على ثلاثة قراء يتناوبون القراءة ، ويوقدون الشمع ولا يبقى فى الحرم ركن ولا ناحية الا وفيها مقرىء أو إمام يصلى بجماعته .[١]

وتعتبر ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان من أعظم الليالي عند أهل مكة ويعد إحتفالهم بها أعظم من إحتفالهم بأى ليلة أخرى ، إذ يختتم بها القرآن الكريم خلف المقام الكريم .[٢]

ومن عادة أهل مكة المكرمة فى شهر شوال ،وهو أول أشهر الحج المعلومات أن يوقدوا المشاعل ليلة إستهلاله . وقد كان أهل مكة في العصور الوسطى ، يستعدون طوال شهر شوال لإستقبال الحجاج ، ومحمل الكسوة في ذى القعدة وأوائل ذى الحجة[٣] . وذكر لنا القلقشندى في كتابه (صبح الأعشى) أنه

---

(١) ابن جبير : الرحلة ،ص١٠٨ -١١٠ ؛ ابن بطوطة : الرحلة ،ص ١٦١ .
(٢) ابن بطوطة : الرحلة ،ص ١٦٢ .
(٣) على بن الحسين: العلاقات الحجازية ،ص ٢١٣ .

في كل سنة يجهز الى الحجاز المحمل من الديار المصرية لكسوة الكعبة المشرفة ويأخذ سدنة الكعبة الكسوة القديمة التى كانت على البيت فيوزعونها على الملوك وأشراف الناس .[١]

ولأهل مكة المكرمة إحتفالات دينية متعددة في مختلف المناسبات الأخرى ، فقد كانوا يحتفلون بمولد النبى صلى الله عليه وسلم في شهر ربيع الأول ، ويحتفلون بمولد السيدة ميمونة زوج النبى صلى الله عليه وسلم في منتصف شهر صفر ، عند مدفنها بالزاهر على طريق المدينة المنورة . كما يحتفل أهل مكة بأولادهم عند تمام حفظهم للقرآن الكريم[٢] . ولهم أيضاً عادات وتقاليد في الزواج والوفاة . ومن عاداتهم أيضاً الإصطياف بالطائف لطيب هوائها وكثرة مياهها ، ويمتلك أشراف مكة أكثر قصورها وحدائقها .[٣]

ورغم أن المصادر العربية لا تحدثنا كثيراً عن عادات وتقاليد أهل المدينة المنورة . إلا أن الإحتفالات وعادات سكان مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم التي حدثنا عنها بعض الرحالة المعاصرين ، كانت كما يبدو ، لها أصول من العصر الأيوبى وما قبله بدليل إستمرارها .

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ ٤ ، ص ٢٧٦ - ٢٧٧ .

(٢) البتنونى : الرحلة الحجازية ، ص ٥١ ؛ على بن الحسين : العلاقات الحجازية ، ص ٢١٢ .

(٣) على بن الحسين : العلاقات الحجازية ، ص ٢١٢ .

ومن عادات أهل المدينة المنورة في رمضان أن يتناولوا فطوراً خفيفاً في المسجد النبوي بعد آذان المغرب ،لا فرق بين غنيهم وفقيرهم ، ثم يصلون المغرب ، ويذهبون الى بيوتهم ليتناولوا الفطور الكامل . وبعد الأكل يحضرون الى المسجد النبوى لصلاة العشاء وصلاة التراويح .

أما عيد الفطر المبارك فكان عندهم أربعة أيام يتزاورون فيها ، لكل حي من أحياء المدينة يوم مخصوص يزور أهله فيه أهالى الأحياء الأخرى ، ويقدم للزائرين الحلوى فيأكلون ،وماء الورد فيتطيبون ،والعود الهندى فيتبخرون .(١)

ومن عادات أهل المدينة المنورة فى الزواج ،أنه إذا رغب فتى في الاقتران بفتاة ، إتفق أهله مع أهلها ، فتقام ولائم للرجال والنساء ليلة الزفاف ،وليلتين قبلها ،وليلة بعدها .(٢)

ومن عاداتهم أيضاً في الولادات ، أنهم يغسلون الطفل عندما يمضي على ولادته أربعون يوماً وينظفونه ويلبسونه ملابس جميلة بيضاء . وبعد أن يعطروه يأخذه أهله - وهم في أحسن زينة لهم - الى الحجرة الشريفة، وهناك يأخذه الخدم ،ويضعونه فيها ،ويغطونه بستارتها ثم يدعون له بالخير ،

---

(١) ابراهيم رفعت : مرآة الحرمين ، جـ١ ،ص٢٤٤ ؛ البتنونى : الرحلة، ص٢٦١ ؛ علي بن الحسين : العلاقات الحجازية ،ص ٢٢١ .

(٢) ابراهيم رفعت : مرآة الحرمين ،جـ ١ ،ص ٢٤٢ .

وبعدها يسلم الطفل الى أمه فتأخذه فرحة . ومن عاداتهم أيضاً عند الوفيات أنهم لا ينوحون إذا مات لهم ميت ولا يبكون . ويخرجون كل يوم خميس نساءً ورجالاً بعد صلاة العصر الى البقيع ، ويلقون على القبور شيئاً من الرياحين.(١)

ومن عادات أهل المدينة المنورة في النزهات والترويح عن النفس أنهم يتنزهون في البساتين فيخرجون إليها في يومى الثلاثاء والجمعة بعد صلاة العصر جماعات جماعات ، ويعودون في المساء ، وقد يخرجون في هذه النزهات من أول اليوم الى البساتين التي تقع في ضواحي المدينة ومعهم غداؤهم فيمضون نهارهم في سرور وحبور ،ويسمون هذه النزهة مقيالا .

وكانت من عاداتهم القديمة في الهدايا أيضاً ، أن كل واحد منهم يقدم كل سنة في ليلة السابع والعشرين منشهر ذى القعدة كمية من الحنطة كهدية الى الحجرة الشريفة . وبعد أن يغسل الحنطة وينظفها جيدا يضعها في كيس جديد من القماش الأبيض ،ويحملها الى المسجد النبوى الشريف حتى إذا وصل الى الباب المؤدى الى المقابلة الشريفة ، إستغاث برسول الله ،ثم وضع الكيس بكل أدب داخل الحجرة الشريفة . وهذه الأكياس يأخذها خدم الحجرة الشريفة ويهدون منها الى عظماء المسلمين تبركا .(٢)

---

(١) البتنونى : الرحلة ،ص٢٥٩-٢٦١ ؛ ابراهيم رفعت: مرآة الحرمين ج ١ ص ٤٤٣ .

(٢) ابراهيم رفعت : مرآة الحرمين ،ج ١ ،ص٤٤٣ ؛ البتنونى : الرحلة ، ص ٢٥٩ - ٢٦٠ .

أما عن عادات أهل مكة المكرمة في الملبس ، فقد كان من عادة المكيين التأنق في اللباس وتكثر في ملابسهم الألوان الزاهية خصوصاً الأخضر والأحمر والوردى والأزرق .(١)

وعرفت مكة المكرمة في العصور الوسطى ثياباً جديدة من الحرير والكتان . وأنواعاً براقة تتلألأ إذا إنعكست عليها أشعة الشمس ، كانت ترد إليها من تجارتها مع مصر . كما عرفت العمائم المزركشة بما يشبه القصب ، وعرف لبس الجبة. ويبدو أن المؤثرات الفاطمية في الملابس ، كانت واضحة في حياة الناس الإجتماعية . فمن المعروف أن الفاطميين إعتادوا أن يخلعوا على الأمراء والوزراء خلعاً خاصة في الأعياد والمناسبات . وكانت هذه الخلع توشى بخيوط الذهب والفضة . وكان لأمراء مكة نصيب وافر من هذه الخلع ، بحكم الصلة الوثيقة بينهم وبين الفاطميين. وكانت تصل الى مكة في مواسم الحج ومناسبات الأعياد ، أنواع مختلفة من هذه الخلع والثياب الموشاة بخيوط الذهب والفضة . وشاع تقليد هذه الثياب الموشاة بالطرز الفاطمية في الأوساط الراقية في مكة ، فتركت أثرها في إقبال الأثرياء

---

(١) ابراهيم رفعت : مرآة الحرمين ، جـ ١ ، ص ٢٠٤ ؛ البتنوني : الرحلة ص ٤٩ ؛ على بن الحسين : العلاقات الحجازية ، ص ٢١١ .

في مكة على إرتداء هذه الملابس . وقد نالها من التطور ما جعلها قريبة الشبه بما يلبسه الفاطميون . ويبدو أن هذه العادة في إرتداء الثياب الموشاة إستمرت طيلة العصر الأيوبي وما بعده .(١)

ومن عادات أهل مكة في الطعام والشراب : أنهم يقدمون الشاى في أى وقت تحية للقادم عليهم ، كما أنهم يقيمون المآدب في حفلة يسمونها " قيلة " ويتفاخرون بتقديم الكثير من أصناف الطعام المختلفة في شكلها وطعمها . وقد تنوعت أطعمة سكان العاصمة المقدسة فمنها الهندى والعربى والشامى والمصرى . ويقعد المدعوون في هذه الولائم على سماط يمد على الأرض . وتقدم لهم الوان الطعام لوناً بعد الآخر ، وبعد إنتهائهم من الطعام ، يجلسون للسمر أو سماع بعض الأغانى وآلات الطرب كالعود أو القانون أو الرباب ثم ينصرفون .(٢)

أما الخدمات الإجتماعية في الحجاز في العصر الأيوبى ، فقد قام بتأديتها السلاطين والأغنياء ، وأهمها بناء المصانع وهى برك الماء والآبار لخدمة الحجاج والسكان .

---

(١) السباعى : تاريخ مكة ، ج ١ ، ص ٢١٧ .
(٢) البتنونى : الرحلة ، ص ٤٩ ، على بن الحسين : العلاقات الحجازية ، ص ٢١١ .

ففي سنة ٥٦٩هـ/ ١١٧٣م تعطلت بعض الآبار في طريق مكة - المدينة ، فأمر الخليفة العباسي المستضيء بالله بإصلاح الطريق والآبار التي تقع في هذا الطريق . وفي سنة ٥٧٢هـ/١١٧٦م أمر كذلك صلاح الدين الأيوبي بإصلاح الطريق والآبار التي تقع في طريقة مكة - المدينة أيضاً . كما أمر بإصلاح البرك التي تعرضت للخراب في الطريق نفسه . وفي سنة ٥٨١هـ/ ١١٨٥ م أمر صلاح الدين أيضاً بإصلاح هذا الطريق وتوفير الأمن فيه ، كما أرسل الأعطيات كي يتم توزيعها على سكان الطريق.(١)

وفي سنة ٥٨٤هـ/١١٨٨م أمر الخليفة العباسي أبو العباس أحمد الناصر لدين الله بعمارة عين وادى النعمان والمصانع في عرفة لحجاج بيت الله الحرام .(٢)

وفي سنة ٥٩٤هـ/١١٩٧م . عمّر ابن المظفر (صاحب اليمن) العين الموجودة بعرفة ، كما عمّر البرك التي فيها(٣) أيضاً . وفي سنة

---

(١) ابن فهد : إتحاف الورى ، ورقة ٢٤٤ ؛ سليمان مالكي : مرافق الحج ص ١٩٢

(٢) سليمان مالكي : مرافق الحج ، ص ١٥٦-١٥٧ ؛ ووادى النعمان : وادى عرفة ، دونها الى منى وهو كثير الأراك ويقع بين مكة المكرمة والطائف، انظر ياقوت الحموى : معجم البلدان ، جـ ٥ ، ص ٢٩٣ ؛ البكرى الأندلسى : معجم ما استعجم ، جـ ٣ ، ص ١٣١٦ .

(٣) الجزيرى : درر الفوائد ، ص ٢٦٧ - ٢٦٨ .

٦٠٤هـ/١٢٠٧م عمّر المظفر صاحب إربل أيضاً البئر المعروفة ببئر ميمون بن الحضرمي - أخي العلاء بن الحضرمي - بأعلى مكة[١]. وفي سنة ٦٠٥هـ/١٢٠٨م أنشأ المظفر صاحب إربل بئرين بعرفة.[٢]

ولعثمان بن على الزنجيلي سبيل خارج باب الشبيكة باتجاه طريق التنعيم على يمين الذاهب الى العمرة، وتاريخ عمارة الزنجيلي لهذا السبيل في سنة ٦٢٠هـ/١٢٢٣[٣]. أما العين المعروفة بعين بازان، فقد عمّرها الخليفة المستنصر بالله أبو جعفر المنصور[٤] سنة ٦٢٥هـ/١٢٢٧م ولم تتحدث المصادر القديمة عن أية إصلاحات لهذه العين.

ومن المآثر التي قام بها إقبال بن عبد الله المعروف بالشرابي بظاهر مكة المكرمة، عمارته لعين عرفة والبرك التي بها بعد خرابها وتعطلها حوالى عشرين سنة، وكان ذلك في سنة ٦٣٣هـ/١٢٣٥م. وعين عرفة التي

---

(١) ابن فهد : إتحاف الورى، ورقة ٢٤٦ ؛ الفاسي : تحصيل المرام ورقة ٦٧.

(٢) ابن فهد : اتحاف الورى، ورقة ٢٤٧.

(٣) الفاسي : العقد، جـ ٧، ص ٣٤ - ٣٥.

(٤) ابن فهد : إتحاف الورى، ورقة ٢٥٣ ؛ الفاسي : تحصيل المرام، ورقة ٦٨ ؛ الفاسي : العقد الثمين، جـ ٦، ص ٢٨٧ - ٢٨٨، سليمان مالكي : مرافق الحج، ص ١٥٥.

عمرها إقبال تقع في وادي النعمان ، ولإقبال الشرابي هذا مآثر أخرى عديدة وصدقات كثيرة .(١)

وفي سنة ٦٤٧هـ/١٢٤٩م أوقف الشيخ أبو حمد عطية بن ظهيرة ابن مرزوق المخزومي المكي سبيلين ، أحدهما بمكة عند البئر المعروفة بالحرارية ، والثاني بمنى عند الجمرة الوسطى المعروفة بسبيل عبد الصمد . وكان هذا الشيخ المذكور ذا مال وافر ، وحب للخير كثير ، وكان يستخدم هذا المال في وجوه البر .(٢)

أما عن المدينة المنورة وتوفير المياه فيها ، فكانت تقع في الجنوب الغربي منها عين الزرقاء التي تستمد ماءها من عين تسمى الجعفرية ، وتتصل عين الزرقاء هذه بآبار عديدة بواسطة قنوات تجرى فيها مياه من الآبار حتى تختلط بمياه عين الزرقاء وتسير في مجرى واحد . ثم ينقسم هذا المجرى بدوره داخل المدينة المنورة الى ثلاثة قنوات ، تصب ماءها في ثلاث خزانات رئيسية لإمداد أهل المدينة المنورة بالماء ولتأمين الماء للحجاج خاصة في فترة الزيارة. وفي سنة ٥٦٠هـ/١١٦٤م أي قبيل

---

(١) الفاسي : العقد الثمين ، جـ ٣ ، ص ٣٢٤ - ٣٢٥ ؛ وإقبال الشرابي هو الأمير شرف الدين ، أحد مماليك الخليفة المتنصر بالله العباسي ، انظر الفاسي : نفس المصدر والجزء والصفحة.

(٢) ابن فهد : إتحاف الورى ، ورقة ٢٥٧ ؛ الفاسي : العقد الثمين ، جـ ٧ ، ص ١٠٧ - ١٠٨ .

العصر الأيوبي ، قام إبن أبى الهيجاء (١) ببناء خزانات تحت الأرض ، تصل اليها مياه عين الزرقاء بواسطة قنوات أنشئت خصيصاً لهذا الغرض ، وكان السقاة ينزلون الى هذه الخزانات بواسطة سلالم . كما خصص عمالاً للإشراف على هذه الخزانات ، وتنظيم مساقط المياه فيها . وفي نفس العام ٥٦٠هـ/ ١١٦٤م أمر ابن أبى الهيجاء بايصال الماء الى داخل المسجد النبوى الشريف ، ولكن لسوء إستعمال الحجاج للمياه ، واستخدامهم إياه في الوضوء ، أمر والى المدينة المنورة في السنة التالية باخراج هذه القناة خارج المسجد النبوى . (٢)

أما عن الأربطة في بلاد الحجاز في العصر الأيوبي ، فقد كان لها علاقة وثيقة بالحجاج الوافدين إلى مكة المكرمة لأداء مناسك الحج ، وكذلك لطلاب العلم المجاورين أيضاً في مكة . وكان لانشاء هذه الأربطة نتيجة حتمية لابد منها ، إذ أنها توفر جميع سبل الراحة لطلاب العلم وللحجاج المقيمين فيها أثناء موسم الحج ، من مسكن ومأكل ومشرب ، حيث أن مكة المكرمة إمتلأت بالعديد من الأربطة منذ سنة ٤٠٠هـ/ ١٠٠٩م (٣) ، ولم

---

(١) ابن أبي الهيجاء : هو مقاتل بن عطية ولد سنة ٥١٥هـ/ ١١٢١م إشتغل بالشعر وهو من شعراء العصر العباسى الثانى ، قصد الحج سنة ٥٦٠ هـ / ١١٦٤م وقام بأعمال خيرية فى المدينة المنورة. سليمان مالكى : مرافق الحج ، ص ٢٠٤ .

(٢) سليمان مالكي : مرافق الحج ، ص ٢٠٣ - ٢٠٥ .

(٣) المصدر السابق : ص ١٣٤ .

تذكر المصادر التاريخية أن الأربطة أقيمت في مكة المكرمة قبل هذا التاريخ ، ثم كثرت بعد ذلك فيها وخاصة في العصر الأيوبى .

ووجود هذه الأربطة في مكة المكرمة دفع المجاورين الى الإقبال على طلب العلم والتفقه في الدين ، حيث توفر لهم مايرفع عنهم الفقر والعوز . ولهذا لقد لعبت الأربطة دوراً هاماً في المجتمع المكي خلال العصر الأيوبى ، فأحتوت العاصمة المقدسة على عشرين رباطاً ، حيث أقبل كثير من طلبة العلم والمجاورين على هذه الأربطة ، وتسابقوا على سكنها ، وخاصة بعد أن أوقفت عليها الأوقاف الكثيرة من قبل السلاطين والخلفاء والأغنياء في ذلك العصر ، وأقدم هذه الأربطة التي ورد ذكرها في المصادر التاريخية وخاصة في العصر الأيوبى هى :

(١) **رباط الحضارمة** : بنى تجار وأهالى حضرموت رباطاً سنة ٥٧٠هـ/ ١١٧٤م ليكون سكناً لمن يقيم في مكة المكرمة من طلبة العلم ، وللحجاج القادمين من حضرموت. وكان هذا الرباط يقع في منطقة أجياد ، وفى تلك السنة أوقف الشيخ أبو العباس ، ويقال أبو جعفر ـ أحمد بن ابراهيم بن عبد الملك بن مطرف التميمى المدينى الفنجيرى ـ الرباط الذى يقع بالمروة .(١)

---

(١) الفاسى : العقد الثمين ،جـ ٣ ،ص ٦ .

(٢) **رباط المراغي** : أوقف قاضي القضاة ، أبو بكر محمد بن عبد الله بن عبد الرحيم المراغي في سنة ٥٧٥هـ/١١٧٩م رباطاً عند باب الجنائز . واشترطت وقفيته أن يكون سكناً للصوفية الزهاد ، الذين يسكنون مكة من العرب . ولم تذكر المصادر أن هذا الرباط كان سكناً للحجاج في موسم الحج .(١)

(٣) **رباط الخاتون** : في سنة ٥٧٧هـ/١١٨١م أوقفت الخاتون الشريفة فاطمة بنت الأمير أبي ليلى محمد بن أبي سروان الحسني ، رباطاً سمي باسم الخاتون ، وعرف فيما بعد برباط ابن محمود . وكان هذا الرباط يقع عند باب العمرة . واشترطت الخاتون في وثيقة وقف الرباط ، أنه خاص بالصوفية من العرب فقط والعجم من الرجال دون النساء ، كما كان سكناً للحجاج الصوفية القاصدين مكة المكرمة لأداء فريضة الحج .(٢)

---

(١) ابن فهد : إتحاف الورى ، ورقة ٢٤٠ - ٢٤١ ؛ الفاسي : تحصيل المرام ، ورقة ٦٥- ٦٦ ؛ العقد الثمين ، ج ١ ، ص ١١٨ ، شفاء الغرام ، ج ١ ، ص ٣٣٠ ؛ سليمان مالكي ، مرافق الحج ، ص ص ١٣٤ .

(٢) ابن فهد : إتحاف الورى ، ورقة ٢٤١ ؛ الفاسي : تحصيل المرام ، ورقة ٦٥- ٦٦ ؛ العقد الثمين ، ج ١ ، ص ١١٨ .

(٤) **رباط قايماز** : أوقف هذا الرباط سنة ٥٧٨هـ/١١٨٢م الأمير قايماز بن عبد الله بن قليج أرسلان الشامي السلجوقي، من أمراء سلاجقة الروم. وكان هذا الرباط يقع قريباً من شمال المجزرة الكبرى على يمين الذاهب الى المعلاة . واشترط الأمير قايماز في وقفيته أن يكون سكناً للمقيمين والمجاورين والمنقطعين في مكة المكرمة من الأحناف في فترة موسم الحج .(١)

(٥) **أربطة الاخلاطي** : وهي عبارة عن ثلاثة أربطة ، أوقفت في سنة ٥٧٨هـ/١١٨٢م الرباط الأول منها أوقف على نساء الحنفية من المجاورات ، وكذلك أوقف الرباط الثاني على أهل مدينة أخلاط من الصالحين القاصدين لبيت الله الحرام ، واما الأخير منها أوقف سنة ٥٩٠هـ/١١٩٣م(٢)

(٦) **رباط الزنجيلي** : في سنة ٥٧٩هـ/١١٨٣م أنشأ عثمان ابن علي الزنجيلي نائب أمير عدن عند باب العمرة رباطاً ، أوقفه على الأحناف المقيمين بمكة . وجعل شرط وقفيته أن يكون سكناً للحجاج القادمين من عدن في فترة موسم الحج . وقد كان الزنجيلي نائباً بعدن ، للسلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب .(٣)

---

(١) ابن فهد : إتحاف الورى ، ورقة ٢٤١ ؛ الفاسي : تحصيل المرام ، ورقة ٦٥-٦٦ ؛ شفاء الغرام ، ج ١ ، ص ٣٣٢ .

(٢) ابن فهد : إتحاف الورى ، ورقة ٢٤١ ؛ الفاسي : تحصيل المرام ، ورقة ٦٥-٦٦ ؛ العقد الثمين ، ج ١ ، ص ١١٨ .

(٣) ابن فهد : إتحاف الورى ، ورقة ٢٤٢ ؛ أبوشامة : الروضتين ، ج٢ ، ص ٢٦ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٦ ، ص ٩١ ؛ الفاسي : العقد الثمين ج١ ، ص ١١٨ .

(٧) **رباط أم الخليفة الناصر العباسي** : ويعرف بالعطيفية ، لأن الشريف عطيفة صاحب مكة المكرمة كان يسكن هذا الرباط ، وتاريخ عمارته سنة ٥٧٩ هـ/ ١١٨٣م ، وكان وقفاً على فقراء الصوفية[(١)] .

(٨) **مآثر طاب الزمان الحبشية** : تركت طاب الزمان الحبشية وهي عتيقة الخليفة المستضيء بالله العباسي من المآثر بمكة المكرمة ، منها الدار المعروفة بدار زبيدة ، أوقفتها على عشرة من الفقهاء الشافعية في شعبان من سنة ٥٨٠هـ/ ١١٨٤م[(٢)] .

(٩) **رباط أبي رقيبة** : ويقال له أيضاً رباط العفيف ، وقد أوقفه القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي بن الحسن اللخمي العسقلاني[(٣)] ،

---

(١) ابن فهد : إتحاف الورى ، ورقة ٢٤٢ ؛ الفاسي : العقد الثمين ، جـ ١ ، ص ١١٨ ؛ شفاء الغرام ، جـ ١ ، ص ٣٣٠ .

(٢) الفاسي : العقد الثمين ، جـ ٨ ، ص ٢٦١-٢٦٢ .

(٣) القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي بن الحسن اللخمي العسقلاني من أئمة الكتاب في الدولة الأيوبية ، وكان وزير صلاح الدين الأيوبي ولم يخدم أحد بعد صلاح الدين ، ولد بعسقلان بفلسطين سنة ٥٢٩هـ/ ١١٣٥م ، وتوفي بالإسكندرية سنة ٥٩٦هـ / ١٢٠٠م ؛ انظر الزركلي : الأعلام جـ ٤ ، ص ١٢١ .

وزير السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب . وموقع الرباط عند مدرسة الأرسوفي جنوب مكة بالقرب من باب العمرة ، وقفه هو وشريكه فيه العفيف عبد الله ابن محمد بن عبد الله المعروف الأرسوفي كما هو مثبت في الحجر الذي على باب الرباط المذكور . إذ نقش على حجر تأسيسه ، بأن الرباط المذكور وقف على الفقراء والمساكين العرب والعجم من الرجال دون النساء ، القادمين الى مكة المكرمة والمجاورين بها على أن لا يزيد سكن المقيم فيه على ثلاثة سنوات .(١)

(١٠) **رباط ربيع** : أوقف هذا الرباط ، السلطان الملك الأفضل نور الدين علي بن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب صاحب دمشق ، وكان يقال له ربيع بن عبد الله بن محمود الماردينى ، وهذا سبب شهرته برباط ربيع . وموقع هذا الرباط في منطقة أجياد ، وتاريخ وقفه كان في العشر الأوسط من شهر ذى الحجة سنة ٥٩٤هـ/١١٩٧م ، واشترط في وقفيته أن يكون وقفاً على الفقراء الغرباء من المسلمين .(٢)

---

(١) ابن فهد : إتحاف الورى ، ورقة ٢٤٤ ؛ الفاسي ، تحصيل المرام ، ورقة ٦٦-٦٧ ؛ العقد الثمين ، جـ ٥ ، ص ٤٢٢ - ٤٢٣ .

(٢) ابن فهد : اتحاف الورى ، ورقة ٢٤٤-٢٤٥ ؛ الفاسي : العقد الثمين جـ ٧ ، ص ٢٧٥ - ٢٧٦ .

(١١) **رباط ابن غنايم** : في سنة ٦٠٠هـ/١٢٠٣م أوقف الملك العادل ملك الجبال والغور والهند محمد بن أبي علي الدار المعروف بابن غنايم ، هذا الرباط ، وكان شرط وقفيته على الصوفية من الرجال العرب والعجم ، على ألا يزيد عدد ساكنيه عن عشرة سواء كانوا مجاورين أو عابرين (١)

(١٢) **رباط المغاربة** : ذكر ابن فهد أن الذى أوقفه في سنة ٦٠٤هـ/١٢٠٧م هو القاضى أبو الحسن علي بن عبد الوهاب بن محمد بن أبى الفتوح الإسكندرى . ويقع هذا الرباط في السوق الصغير ، ويعرف برباط المغاربة ، ولا يزال هذا الرباط قائماً حتى الآن ، رغم أنه جدد لأكثر من مرة الا أنه لا يزال يحتفظ باللوحة التأسيسية لبنائه ، ومنقوشاً عليه بالخط النسخ الواضح مايلى :

١) بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلى الله على رسوله سيدنا محمد وعلى آله .

٢) هذا ما وقف وحبس وسبل وتصدق به القاضي الفقيه الموفق المكين الأمين جمال الدين .

٣) ولي أمير المؤمنين أبو الحسن على بن القاضى السعيد الأيمن أبى القاسم عبد الوهاب ، بن الشيخ أبى عبد الله محمد .

---

(١) ابن فهد : إتحاف الورى ، ورقة ٢٤٦ ؛ الفاسى : تحصيل المرام ، ورقة ٦٦-٦٧ ؛ شفاء الغرام جـ١ ، ص ٣٣٥ .

٤) إبن أبي الفرج العدل بالأعمال المصرية رضى الله عنه ، وقف وحبس وسبل وتصدق بجميع هذا الرباط .

٥) على فقراء المغرب الغرباء المتعبدين ذوى الحاجات المجردين ليس للمتأهلين في حظ ونصيب .

٦) تقبل الله ذلك منه وأثابه عليه بالإحسان وقف ذلك وحبسه بجميع حقوقه وقفاً صحيحاً .

٧) ( ) فمن غير ذلك فعليه لعنة الله ولعنة اللاعنين وجرى ذلك فى سنة أربع وستمائة .

ويوجد فى هذا الرباط من الداخل بئر، وهذا يوضح ماجاء في النقش من كلمة " سبل " (١)

(١٣) رباط الحافظ : هو رباط الحافظ أبو عبد الله محمد بن صفده الأصبهاني . وكان موجوداً في مكة المكرمة في العصر الأيوبى ، وقد جدده سنة ٦١٥هـ/١٢١٨ م الشيخ الزاهد أحمد بن محمد بن ابراهيم. (٢)

---

(١) ابن فهد : إتحاف الورى ، ورقة ٢٤٦ ؛ انظر أيضاً : الفاسى : العقد جـ ٧ ، ص ٢٠٤ - ٢٠٥ ؛ شفاء الغرام ، جـ ١ ، ص ٣٣٥ ؛ سليمان مالكى : مرافق الحج ، ص ١٣٦ - ١٣٨ .

(٢) ابن فهد : إتحاف الورى ، ورقة ٢٥٠ .

(١٤) **رباط الخوزى** [1]: أوقف هذا الرباط قراموز الأفرزى الفارسى [2] سنة ٦١٧هـ/١٢٢٠م . واشتهر هذا الرباط برباط الخوزى ، لسكنى أبى جعفر عمر بن مكي بن على الخوزى فيه . فقد أتى عمر بن مكي الى مكة وحج وجاور بها الى أن توفي فى صفر سنة ٦٢٧هـ/١٢٢٩م . ويقع هذا الرباط عند باب ابراهيم ، وقد وقف على الصوفية الغرباء [3] .

(١٥) **رباط التميمى** : فى شهر شوال سنة ٦٢٠هـ/١٢٢٣م ، أوقف العباس احمد بن ابراهيم بن عبد الملك بن مطرف التميمى هذا الرباط . وكان من شروط وقفيته لهذا الرباط أن يكون لجميع الفقراء من أهل الخير والفضل والدين من العرب والعجم المتأهلين وغير المتأهلين ، حسب حاجة كل واحد منهم للسكن في هذا الرباط ، وقد أوقف العباس بالاضافة الى هذا الرباط الحمام الذى يقع بأجياد [4] .

(١٦) **رباط البانياس** : وصاحبه إياز عبد الله البانياس . ويقع هذا الرباط قرب الصفا على يسار الذاهب إليها من المسجد الحرام ، وقفه

---

(١) الخوزى : هذه النسبة الى موضعين : الأول خوزستان ، وهى كور بالأهواز فى ايران ، والثانى : شعب خوز بمكة المكرمة ، انظر الأسنوى : طبقات الشافعية ، جـ ١ ، ص ٤٩٨ - ٤٩٩ .

(٢) الفاسى : العقد الثمين ، جـ ١ ، ص ١١٩ .

(٣) ابن فهد : إتحاف الورى ، ورقة ٢٥١ ؛ الفاسى : تحصيل المرام ، ورقة ٦٥-٦٦ شفاء الغرام ، جـ ١ ، ص ٣٣٢ .

(٤) ابن فهد : إتحاف الورى ورقة ٢٥٢ ؛ الفاسى : شفاء الغرام جـ ١ ، ص ٣٣٣

على الفقراء المعروفين بالدين والخير والصلاح ، وكان تاريخ وقفه في شهر ربيع الأول سنة ٦٢٥هـ/١٢٢٧م (١) .

(١٧) **رباط الشرابي** : هو الرباط الذي ينسب الى الأمير إقبال الشرابي المستنصري العباسي ، وله بمكة مآثر عديدة (٢) ، منها هذا الرباط الذي كان واقعاً تحت منارة بني شيبة . ووقف الأمير إقبال أيضاً أوقافاً بأعمال مكة المكرمة منها مياه تعرف بالشرابيات بوادي مر ووادي نخلة بحيث تنفق أموال هذه الأوقاف على الرباط ، وجعل قسماً منه مكتبة تضم كتباً في فنون العلم جعلها وقفاً للرباط أيضاً ، وكان ذلك سنة ٦٤١هـ/ ١٢٤٣م (٣) .

(١٨) **رباط غزي** : وصاحب هذا الرباط هو علي بن محمد المصري ، ووجد على بابه حجراً منقوشاً فيه تاريخ تأسيسه وهو سنة

---

(١) ابن فهد : إتحاف الورى ، ورقة ٢٥٣ ؛ الفاسي : العقد الثمين ، جـ ٣ ، ص ٣٢٨ - ٣٢٩ .

(٢) انظر ماسبق ص ١٢٥ - ١٢٦ .

(٣) ابن فهد : إتحاف الورى ، ورقة ٢٥٥ ؛ النهروالي : الأعلام ، ورقة ٩٨ ؛ الفاسي : العقد الثمين ، جـ ١ ، ص ١١٨ ؛ جـ ٣ ، ص ٣٢٤ - ٣٢٥ ؛ شفاء الغرام ، جـ ١ ، ص ٣٣٠ .

٦٤٢هـ/ ١٢٤٤م . وكان من شرط وقفيته أنه وقفه على فقراء المسلمين من مساكين ورجال مجردين ومن أي جنس كان .[١]

(١٩) **رباط أبي القاسم بن كلاله الطيبي** : شيده أبو القاسم الطيبي في سنة ٦٤٤هـ/ ١٢٤٦م ، ووقفه على الفقراء .[٢]

(٢٠) **رباط الساحة** : كان هذا الرباط موجوداً أثناء القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي . ووقفه جماعة من النسوة منهن والدة الشيخ قطب الدين القسطلاني على الفقراء والغريبات المتدينات.[٣]

---

(١) ابن فهد : اتحاف الورى ، ورقة ٢٥٥ ؛ الفاسي : العقد الثمين ، جـ ٧ ، ص ٢٦٠ .

(٢) ابن فهد : إتحاف الورى ، ورقة ٢٥٦ ؛ الفاسي : تحصيل المرام ، ورقة ٦٥-٦٦ ؛ الفاسي : العقد الثمين ، جـ ٨ ، ص ٩٠ ؛ شفاء الغرام ، جـ ١ ، ص ٣٣٣ .

(٣) الفاسي : شفاء الغرام ، جـ ١ ، ص ٣٣٤ .

أما الأربطة في المدينة المنورة فكانت توجد عدة أربطة كان لها أثرها أيضاً في الحياة الاجتماعية في مدينة الرسول عليه الصلاة والسلام. وكانت هذه الأربطة سكناً لطلاب العلم والغرباء والمجاورين والفقراء والزهاد وغيرهم من القادمين الى المدينة المنورة والمقيمين فيها ، ومن أهم أربطة المدينة المنورة في العصر الأيوبى مايلى :

١ - رباط الناصر لدين الله : أمر الخليفة العباسي الناصر لدين الله في سنة ٥٧٠هـ/١١٧٤ م ببناء رباط يكون سكناً لطلبة العلم المقيمين في المدينة المنورة وللغرباء. ويقع هذا الرباط عند باب النساء ، وقد جاء في شرط وقفيته أن يكون سكناً للحجاج أيضاً في فترة الزيارة .(١)

٢ - رباط المراغي : أوقف قاضي القضاة أبو بكر محمد بن عبد الله المراغي في سنة ٥٧١ هـ/١١٧٥ م رباطاً ، وكان يقع عند باب السلام ، وشرط في وقفيته أن يكون سكناً للصوفية الزهاد والمقيمين في المدينة ، وأن يكون سكناً للحجاج أثناء زيارتهم .

٣ - رباط البخارية : هذا الرباط يقع أمام باب الرحمة ، وقد أوقفه جماعة من تجار مدينة بخارى في سنة ٥٧٧هـ/١١٨١ م ، وقد إشترط

---

(١) سليمان مالكي : مرافق الحج ، ص ٢١٥ - ٢١٦ .

هؤلاء التجار في وقفيته أن يكون سكناً للغرباء والمجاورين لمدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ، على أن يكونوا من مدينة بخارى ، وأن يكون هذا الرباط أيضاً سكناً للحجاج أثناء زيارتهم للمسجد النبوى الشريف .(١)

٤ - **رباط الزنجيلي** : أوقف هذا الرباط فى سنة ٥٧٩هـ / ١١٨٣م من قبل عثمان بن على الزنجيلي ، عندما كان نائباً بعدن للسلطان صلاح الدين الأيوبي فقد كان للزنجيلى كثير من المآثر فى كل من مكة المكرمة والمدينة المنورة . وكان موقع هذا الرباط عند باب النساء ، وقد وقفه على الأحناف المقيمين بالمدينة المنورة ، كما جعله سكناً للحجاج القادمين من عدن أثناء زيارتهم للمسجد النبوى الشريف .

وقد ضم هذا الرباط الذى أنشأه الزنجيلى مكتبة ضخمة ، تضم كتب في الفقه الحنفى ، كما جعل قسماً من هذا الرباط زاوية تقام فيها حلقات للدرس.(٢)

٥ - **رباط والدة الخليفة الناصر لدين الله** : فى سنة ٥٩٩هـ/١٢٠٢م أوقفت والدة الخليفة الناصر لدين الله العباسى رباطاً فى المدينة المنورة ، ويقع هذا الرباط أمام باب جبريل ، ومن شروط وقفيته أن يكون سكناً للفقراء المنقطعين المجاورين فى المدينة المنورة .

---

(١) سليمان مالكى : مرافق الحج ، ص ٢١٦ .
(٢) ابو شامه : الروضتين ، جـ٢ ، ص٢٦ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ٦ ، ص٩١ ؛ سليمان مالكى : مرافق الحج ، ص ٢١٦ .

٦ - **رباط الأصفهاني** : وقف هذا الرباط في أواخر القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي. وقد أوقف هذا الرباط من قبل وزير الزنكيين جمال الدين محمد بن منصور الأصفهاني المعروف بالجواد. وقد ذكر السمهودي أن مكان هذا الرباط كان الدار العظمى لسيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه (١). وقد إشترط جمال الدين أن يكون هذا الرباط وقفاً لفقراء العجم من الفرس، وأيضاً أن يكون سكناً للحجاج الوافدين في فترة موسم الزيارة (٢).

٧ - **رباط خالد بن الوليد** : ذكر السمهودي أن موضع هذا الرباط في موضع دار عمرو بن العاص ودار خالد بن الوليد، وقد عرف هذا الرباط فيما بعد برباط السبيل الذي يسكنه الرجال (٣). وقد عرف برباط السبيل نسبة الى وجود بئر فيه كان سبيلاً للحجاج. وقد تم وقف هاتين الدارين في سنة ٦٢٠هـ/ ١٢٢٣م، عندما إشترى تجار من بلاد غزنة دار عمرو بن العاص ودار خالد بن الوليد المتجاورتين من مالكيهما ليجعلوهما رباطاً، يقيم فيه الغرباء من سكان الهند المقيمين في المدينة المنورة أو الهنود الذين يأتون للزيارة (٤).

---

(١) السمهودي : وفاء الوفاء، جـ ٢، ص ٧٣٢.
(٢) السمهودي : وفاء الوفاء، جـ٢، ص ٦٨٩؛ قطب الدين : تاريخ المدينة، ورقة ١٣٦ ؛ سليمان مالكي : مرافق الحج، ص ٢١٦-٢١٧.
(٣) السمهودي : وفاء الوفاء، جـ ٢، ص ٧٣٠-٧٣١
(٤) سليمان مالكي : مرافق الحج، ص ٢١٧.

أما عن البيمارستانات أى المستشفيات فكان لإنشائها فى مكة المكرمة والمدينة المنورة أهمية كبيرة لبلاد الحجاز في العصر الأيوبى ، حيث توفر للسكان وللحجاج العلاج المناسب لهم. وكان إنشاء البيمارستان فى مكة يرجع الى تاريخ سنة ٦٢٨هـ/ ١٢٣٠م ، عندما أنشأه شرف الدين ، أحد مماليك المستنصر بالله العباسى . وكان هذا البيمارستان يقع بالقرب من باب الزيادة بالجانب الشمالى من المسجد الحرام.(١)

وفى المدينة المنورة شيد الخليفة العباسى المستنصر بالله فى سنة ٦٢٧هـ/ ١٢٢٩م بيمارستاناً لإستقبال المرضى من السكان المقيمين في المدينة والمجاورين ، وأيضاً لعلاج الحجاج الزائرين للمسجد النبوى الشريف.(٢)

ولا شك أن الأربطة والبيمارستانات لعبت دوراً هاماً فى الحياة الإجتماعية فى بلاد الحجاز فى العصر الأيوبى .

—٠—

---

(١) الفاسى : تحصيل المرام ، ورقة ٦٦-٦٧ ؛ شفاء الغرام ج ١ ، ص ٣٣٧ .

(٢) السخاوى : التحفة اللطيفة ، ج ١ ، ص ٥٢ ؛ السمهودى : وفاء الوفاء ج ٢ ، ص ٦٩٥ .

الفصل الخامس

الحياة العلمية فى بلاد الحجاز فى العصر الأيوبى

- حلقات العلم فى المسجد الحرام
- الكتاتيب .
- المدارس والمكتبات .
- بيوت العلم فى مكة المكرمة .
- مشاهير العلماء والقضاه .

لمكة المكرمة دور قيادي في الحفاظ على تراث العرب والمسلمين في العقيدة الإسلامية وفي العلم والثقافة منذ ظهور الإسلام حتى الآن. ولا شك أن حلقات العلم في المسجد الحرام وفي مسجد الرسول عليه الصلاة والسلام قد لعبت دوراً في الحياة العلمية والثقافية في بلاد الحجاز أثناء العصر الأيوبي . ومن الثابت أن المسجد كان ولا يزال يلعب دوراً فعالاً في رقي الأمة الإسلامية وتطورها دينياً وفكرياً وحضارياً . ويعرف ذلك كل من أمعن النظر في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وحياة من جاء بعده من الصحابة والتابعين وأتباع التابعين . وقد وعى المسلمون الأوائل هذه الحقيقة ، فكان المسجد قلب المجتمع النابض وعقله المفكر ، وضميره الوازع وإرادته الدافعة (١) .

وقد أشار إبن جبير الى حلقات العلم في المسجد الحرام في مكة المكرمة حينما زارها في عصر صلاح الدين الأيوبي (٢) . ولا شك أن أروقة المسجد الحرام والمسجد النبوي عرفت حلقات العلم التي كانت منابر دعوة وإرشاد . وبجانب

---

(١) انظر مرزوق بكري : المسجد محور للنشاط ومركز للتوجيه ، (بحوث مؤتمر رسالة المسجد ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥) ص ٥٠٥ ؛ محمد حسين الذهبي رسالة المسجد في العالم عبر التاريخ ، (بحوث مؤتمر رسالة المسجد ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م) ص ٤٦٠ .

(٢) ابن جبير : الرحلة ، ص ٦٠ ، انظر :
Dohaish Abdullatif : History of Education, P.33

كون المسجد الحرام والمسجد النبوى الشريف مركزين للتوعية الدينية والاجتماعية ، فإنهما كاناً مركزين للتعليم أيضاً . وكانت دروس علم الحديث والفقه والتفسير تلقى فيهما .(١)

وأزدحم المسجد الحرام والمسجد النبوى الشريف برجال الحديث والقراء فى العهد الأيوبى وما بعده ،لكثرة رحلات العلماء الى مكة المكرمة ولعل العلماء إتجهوا شطر مكة المكرمة ، لبعدها عن الفتن السياسية ، وظل العلماء يؤدون رسالاتهم فيها جيلاً بعد جيل (٢) . وكان كل عالم يلقى على طلبته العلوم التى تبحر فيها ، وعليه فإنه لم يكن لكل منهم منهج مقرر يسير عليه فى تدريسه ، فالدراسة فى الحرم لم تسر وفق مناهج مقررة أو محددة ، إذ أن المدرس هو الذى يقرر ما يريد تدريسه ، والطالب يختار المدرس الذى يلائمه .(٣)

وكانت حلقات التدريس تعقد يومياً من قبل الشيخ فى المسجد ، تضم الجميع بلا تفرقة وبكل بساطة وتواضع ،ويجلسون على حصير يستمعون الى

---

(١) محمد حسين يوسف : رسالة المسجد فى العالم عبر التاريخ (مؤتمر بحوث رسالة المسجد ،١٣٩٥هـ/١٩٧٥م) ،ص ٤٦٦ .

(٢) عبد الرحمن الصالح : تاريخ التعليم ،ص ٤٠-٤١ .

(٣) عبد الرحمن الصالح : تاريخ التعليم ،ص ٤١ ؛ محمد عبد الرحمن الشامخ : التعليم فى مكة والمدينة ،ص ٩-١١ .

شيخهم فيناقشهم ويناقشونه . والطالب يدرس بجد ومثابرة ، والشيخ يحضر الدرس بإتقان وإخلاص ، وهكذا تسير الدراسة بنظام وأناة وصبر وتفهم . وقد أُستعملت أيضاً طريقة الإملاء والقراءة ودراسة الرواية والدراية.[(١)] وقد كان لكل مذهب ركن خاص به في الحرم المكي ، والحرم النبوي يجتمع فيه رجال كل مذهب على حدة للصلاة والدراسة .[(٢)]

وفي الحرم المكي لا يحصل طلاب العلم على شهادات دراسية ، بل كانوا يحصلون على إجازات علمية من أساتذتهم . وكان علماء الحرم يتبعون في منح هذه الإجازات التقاليد العلمية التي وجدت في المجتمع الإسلامي منذ القرون الأولى للهجرة .[(٣)]

ولم يكن العلماء يتقاضون راتباً معيناً لقاء الدروس التي يقومون بتدريسها في المسجد الحرام ، وكذلك فانهم كانوا لا يأخذون من الطلبة صدقة أو زكاة لأن تعليمهم كان لله وفي سبيل الله .[(٤)]

---

(١) عبد الرحمن الحوت : رسالة المسجد والامام ، (بحوث مؤتمر رسالة المسجد ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م) ص ١٥٢-١٥٥.
(٢) على بن حسين السليمان : العلاقات الحجازية ،ص ٢٤٤ .
(٣) محمد عبد الرحمن الشامخ : التعليم في مكة والمدينة ، ص ١٨- ١٩ .
(٤) عبد الرحمن الصالح : تاريخ التعليم ،ص ٤١ .

ولم تقتصر فائدة الدروس التى كانت تلقى بالحرم على المكيين أنفسهم، بل نهل من هذه المدرسة علماء من شتى ديار المسلمين، الذين كانوا يفدون الى مكة المكرمة لتلقى العلم فى الحرم المكى. وقد كان كل من الحرمين المكى والمدني منهلاً لطلاب العلم يقصدونهما من جميع البلاد، وتعقد فيهما حلقات فى جميع العلوم، والمعارف (١). وتخصصت بعض البيوت فى مكة المكرمة فى نشر العلم وتوارثته كما كانت تتوارث خطب الجمعة والإمامة فى المسجد الحرام (٢).

أما دور الكتاتيب فى الحياة العلمية والثقافية فى بلاد الحجاز فى العصر الأيوبى، فمن المعروف أن الكتّاب ظهر كمؤسسة تعليمية منذ أوائل العهد الإسلامي، والكتّاب هو المؤسسة التعليمية التي وجدت فى المجتمع الإسلامي لتقوم بتربية صغار المتعلمين. وسمى الكتّاب بهذه التسمية لأن الطفل يتعلم فيه الكتابة والقراءة، ثم شاع إستعمال هذه التسمية بحيث أصبحت تطلق على كل مؤسسة تعليمية تعنى بتربية الصغار (٣).

ولقد وجد الكتّاب جنباً الى جنب مع المسجد، ليسهم فى نشر العلم والمعرفة. وكان الكتّاب يتخذ من المسجد مقراً له فى بعض الأحيان. وينطبق

---

(١) عبد الرحمن الصالح : تاريخ التعليم، ص ٤٣ ؛ محمد عبد الرحمن الشامخ : التعليم فى مكة والمدينة، ص ١١ - ١٤.

(٢) السباعى : تاريخ مكة، ج ١، ص ٢١٧

(٣) Dohaish Abdullatif: History of Education, P.19-20

هذا القول على الكتاتيب في مكة المكرمة ، إذ أن بعض معلمي الأطفال كانوا يقومون بتأدية رسالاتهم العلمية في المسجد الحرام.(١)

أما عن المدارس والمكتبات في الحجاز في العصر الأيوبي ، فقد قامت المدارس - في المجتمعات الإسلامية - الى جانب المسجد والكتّاب ،تسهم في تربية وتعليم المسلمين . ويربط المؤرخون بين نظام الملك الوزير السلجوقي وبين قيام المدارس في الإسلام ، مع أن بعض المدارس وجدت قبل نظام الملك . ولعل سبب شهرة نظام الملك ومدارسه ، كونه أول من جعل التعليم مجانياً ،وفرض للطلاب الأرزاق والأموال .(٢)

وإذا كانت المدارس الإسلامية قد بدأت في التطور في منتصف القرن الخامس الهجري / منتصف القرن الحادي عشر الميلادي ، فإن ظهورها في مكة المكرمة لم يبدأ إلا في الربع الأخير من القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي .(٣)

---

(١) عبد الرحمن الصالح : تاريخ التعليم ، ص ٥٥ ؛
Dohaish Abdullatif : History of Education, P.20

(٢) نظام الملك هو : أبوعلي الحسن بن علي بن اسحاق بن العباس الطوسي وزير السلطان السلجوقي ملك شاه بن ألب أرسلان بن داوود بن سلجوق ونظام الملك صاحب المدرسة النظامية المشهورة في بغداد وهي أول مدرسة قرر بها للفقهاء أرزاق وقد ابتدأ بناء هذه المدرسة في سنة ٤٥٧هـ ١٠٦٤م ، انظر المقريزي : الخطط ،جـ ٢ ،ص ٣٦٣ .

(٣) عبد الرحمن الصالح : تاريخ التعليم ،ص ٦١ .

كثرت المدارس فى مكة المكرمة والمدينة المنورة كثرة واضحة ، وكان الهدف الرئيسى منها التدريس ونشر العلم والمعرفة ، ومن أشهر تلك المدارس فى مكة المكرمة فى العصر الأيوبى هى :

١) مدرسة الأرسوفي

لعلها أقدم مدرسة فى مكة المكرمة وكان موقعها بالقرب من باب العمرة أما مؤسسها فهو التاجر العسقلانى عفيف الدين بن عبد الله بن محمد الأرسوفي المتوفي سنة ٥٩٣هـ/١١٩٦م[١] ولا يعطينا الفاسى تاريخاً محدداً لإنشائها ، فهو يذكر فى موضع أن ذلك قد تم سنة ٥٧١هـ/ ١١٧٥م ،بينما يشير فى موضع آخر الى أن إنشاء المدرسة تم فى سنة ٥٩١هـ/ ١١٩٥م. ومن الذين درسوا فيها ناصر عبد الله المصرى المتوفي سنة ٦٣٤هـ/ ١٢٣٦م. وقد بنى بجوارها رباطاً أوقفه الأرسوفى لسكن طلبة المدرسة .[٢]

٢) مدرسة الزنجيلي

أسسها الأمير فخر الدين عثمان بن على المعروف بالزنجيلى .وكان قد وقفها على الحنفية سنة ٥٧٩هـ/ ١١٨٣م ، وخصص هذه المدرسة لتدريس

---

(١) المقريزي : الخطط ،جـ ٢ ،ص ٣٦٤.

(٢) الفاسى : العقد الثمين ،جـ ٥ ،ص٤٢٢-٤٢٣ ؛ عبد الرحمن الصالح: تاريخ التعليم،ص ٦١ ؛ سليمان مالكى : مرافق الحج ،ص ١٤١.

الفقه الحنبلي والتفسير .[١]

٣) مدرسة طاب الزمان الحبشية

أسستها طاب الزمان الحبشية عتيقة الخليفة المستضيئ العباسي في سنة ٥٨٠هـ/ ١١٨٤م ، في الموضع المعروف بدار زبيدة . وقفتها على عشر من الفقهاء الشافعية المقيمين في مكة المكرمة .[٢]

٤) مدرسة النهاوندي

في العقد الرابع من القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي قامت في مكة المكرمة مدرسة جديدة ،هي مدرسة النهاوندي . وذكر الفاسي[٣] أن مدرسة النهاوندي وجدت منذ أكثر من مائتي سنة ،فإذا علمنا أن الفاسي توفي سنة ٨٣٢هـ/ ١٤٢٨م، وألف كتابه في آخريات أيامه أدركنا

---

(١) ابن فهد : إتحاف الورى ،ورقة ٢٤٢ ؛ سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، جـ ٨ ،ص ٢٣ ؛ ابو شامة : الروضتين ،جـ٢ ،ص٢٦ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ،جـ ١ ،ص ٩١ ؛ السخاوي :التحفة اللطيفة ،جـ ٣ ، ص ٣٩٧ .

(٢) ابن فهد : إتحاف الورى ،ورقة ٢٤٣ ؛ الفاسي : العقد الثمين جـ ٨ ص ٢٦١ ؛ سليمان مالكي : مرافق الحج ،ص ١٤١ .

(٣) الفاسي : العقد الثمين ،جـ ١ ،ص ١١٨ ؛ عبد الرحمن الصالح: تاريخ التعليم ، ص ٦٢-٦٣ .

أنها أنشئت في العصر الأيوبي حوالي سنة ٦٣٠هـ/١٢٣٢ م وكان موقعها بالموضع الذى يقال له الدريبة (١).

٥) مدرسة ابن أبي زكريا

في سنة ٦٣٥هـ/١٢٣٧م أوقف على بن أبي زكريا مدرسته المعروفة بأبي الطاهر المؤذن ، بقرب المدرسة المجاهدية بالجانب الجنوبي من المسجد الحرام (٢).

٦) مدرسة ابن الحداد المهدوى

أنشأها عبد الحق بن عبد الرحمن بن عبد الحق المهدوى أبو منصور المعروف بابن الحداد وأوقفها على طلبة المالكية بمكة في سنة ٦٣٨ هـ / ١٢٤٠م (٣). وقد عرفت بعد ذلك باسم مدرسة الأشراف الأدارسة لإستيلاء هؤلاء عليها ، وكانت تقع بالقرب من مدرسة الأرسوفى ، ومن الذين درسوا فيها محمد بن عمر بن محمد بن أحمد التوزرى (٤).

---

(١) الفاسى : العقد الثمين جـ ١ ، ص ٣٣٠ ؛ والدريبة : تعرف بهذا الإسم قديماً وهو ركن فى المسجد الحرام بالقرب من باب السلام.

(٢) ابن فهد : إتحاف الورى ، ورقة ٢٥٥ ؛ الفاسى : تحصيل المرام ، ورقة ٦٥، شفاء الغرام ، جـ١ ، ص ٣٣٠ ؛ سليمان مالكى : مرافق الحج ، ص ١٤٢ .

(٣) الفاسى : تحصيل المرام ، ورقة ٦٦ ؛ العقد الثمين ، جـ٥ ، ص٣٣ ، شفاء الغرام ، جـ ١ ، ص ٣٣٠ .

(٤) عن محمد بن عمر ابن محمد بن احمد التوزرى : أنظر مايلى ص ١٦١

٧) المدرسة الشرابية

أسس هذه المدرسة سنة ٦٤١هـ/ ١٢٤٣ م الأمير شرف الدين الشرابي المستنصري وكانت تقع على يمين الداخل الى المسجد الحرام من باب السلام ، ولقد إهتم الشرابي بهذه المدرسة إذ أسس بها مكتبة، وأوقف عليها كتباً كثيرة ، وجعل هذه المدرسة متخصصة في تدريس المذاهب الأربعة الى جانب دروس النحو والأدب ، فكانت الدراسة فيها تسير على نهج المدرسة النظامية ، وكان طلابها من العرب والعجم .

ولقد أُوقف لهذه المدرسة أوقاف كثيرة بوادي نخلة ووادي مر ، وكانت حصيلة هذه الأوقاف ترسل الى هذه المدرسة ، ليتم توزيعها على المدرسين والطلبة فيها . وهناك إشارة الى أنها إستمرت في أداء رسالتها حتى أواخر القرن الحادي عشر للهجرة / السابع عشر الميلادي .(١)

٨) المدرسة المظفرية

كان لحكام بني رسول صلات قوية بمكة المكرمة ، وقد تركوا فيها مآثر عديدة ، منها المدرسة المظفرية التي بمكة المكرمة ، والتي أسسها السلطان عمر بن رسول الملقب بالملك المنصور ، وفي سنة ٦٤١هـ/ ١٢٤٣م أوقف الملك المنصور صاحب اليمن هذه المدرسة التي كانت تقع في الجانب الغربي من

---

(١) الطبري : الأرج المسكي : ورقة ٣١ ؛ النهروالي : الأعلام باعلام ، ورقة ٩٨ ؛ سليمان مالكي : مرافق الحج ، ص ١٤٣- ١٤٤ .

المسجد الحرام ، بالقرب من باب العمرة بين المدرسة الزنجيلية ومدرسة طاب الزمان ، أوقفها على الفقهاء الشافعية . وكانت عمارة المدرسة على يد الأمير فخر الدين السلاح . وقد عرفت بالفخرية أو بمدرسة السلاح ، ثم عرفت أخيراً بالمدرسة المنصورية أو مدرسة السلطان كما سميت بالمظفرية نسبة الى الملك المظفر والد الأمير فخر الدين . وفي سنة ٦٤٢هـ/ ١٢٤٤م أمر الخليفة المستنصر العباسي بإنشاء مكتبة في هذه المدرسة ، وأرسل الأموال من بغداد لهذا الغرض . وفي سنة ٦٤٥هـ/١٢٤٧م أصبحت هذه المدرسة مقراً للملك المنصور وزوجته حينما يأتيان لأداء فريضة الحج ، وإن زوجته أمرت بحفر بئر بها لانتفاع الطلاب من هذه البئر في سقيانه . وجعل فيها الملك المنصور مدرساً ومعيداً وإماماً ومؤذناً ومعلماً ، وسمح للأيتام أن يتعلموا فيها القرآن الكريم . ووقف على الجميع أوقافاً تقوم بكفاية الجميع بحيث يغبطه على هذا الفضل سائر الملوك(١). وقد درس بهذه المدرسة محمد بن عمر بن احمد التوزري الى حين وفاته(٢).

وقد عنيت المدارس التي أنشئت في مكة المكرمة عناية تامة بالعلوم الدينية ، فقد كان الشغل الشاغل للمدارس تدريس العلوم الدينية على مذهب

---

(١) ابن فهد : إتحاف الورى ، ورقة ٢٥٥ ؛ الخزرجي : العسجد المسبوك ورقة ٢٠٥-٢١٠ ؛ يحيى بن الحسين : غاية الأماني ، جـ١ ، ص ٤٣٣ ؛ سليمان مالكي : مرافق الحج ، ص ١٤٣-١٤٤ .

(٢) الفاسي : العقد الثمين ، جـ ٢ ، ص ٢٣٠-٢٣٢ .

من المذاهب الشهيرة أو أكثر . فمدرسة الزنجيلي إختصت بتدريس المذهب الحنبلي، ومدرسة ابن الحداد بتدريس المذهب المالكي ،والمدرسة الشرابية بالتدريس على المذاهب الأربعة ، والمدرسة المظفرية تدرس الحديث وفقه الشافعي ، وأدى هذا التركيز على الأمور الدينية الى عدم العناية بالعلوم الدنيوية التجريدية .(١)

كذلك نجد أن عدداً كبيراً من المدارس التي ظهرت في مكة المكرمة في تلك الفترة ، أنشأها حكام مسلمون من خارج مكة المكرمة ، ولعل لهذا أسباب عدة منها أن المسلمين رغم إنتمائهم لدول متعددة ظلوا يشعرون بإنتمائهم الى كيان واحد وتجمعهم رابطة واحدة وهي رابطة الدين الإسلامي الحنيف . وهذا هو العامل الذي سهل على العلماء المسلمين أن يقصدوا مكة المكرمة طلباً للعلم. أما العامل الثاني الذي أدى الى إهتمام الحكام المسلمين بمكة المكرمة فهو مكانتها المقدسة في قلوب جميع المسلمين .(٢)

ظلت الحركة العلمية في مكة المكرمة في عهد الفاطميين تقتصر على حلقات المدرسين وأهل العلم قبل نشأة المدارس في الربع الأخير من القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي ، وأشهر البيوت التي تخصصت في طلب العلم ، وأوقفت ابناءها عليه في العهد الأيوبي بيت

---

(١) عبدالرحمن الصالح : تاريخ التعليم ،ص ٨٢ .
(٢) المصدر السابق : ص ٨٥ .

الطبرى ، ثم آل ظهيرة القرشيين وآل النويرى . وقد برز من البيتين الأخيرين أسماء كثيرة فى ذلك العهد . واستطاع أصحابها أن يشاركوا آل الطبرى فى رئاسة التدريس بمكة المكرمة ، وأن يتداولوا بدورهم الاضطلاع بأعباء خطبة المسجد الحرام والإمامة وأمور الفتوى فيه [١] .

وكان منصب الخطابة يتنقل فى ثلاثة بيوت ، بيت الطبرى ، وبيت الظهيريين وبيت النويريين ويعتبر بيت الطبريين ذو أهمية أكثر لأنه أقدم من البيتين المذكورين [٢] . وأن أول من قدم مكة المكرمة منهم فى سنة ٥٧٠هـ/ ١١٧٤م الشيخ رضى الدين أبو بكر بن محمد بن ابراهيم ابن أبى بكر بن على فارس الحسينى الطبرى . وقد ولد للشيخ رضى الدين سبعة أولاد ، أصبحوا كلهم فقهاء وعلماء ومدرسين وقضاة وخطباء . ثم توفى سنة ٦١٣هـ/١٢١٦م بعرفات محرماً [٣] .

وذكر القلقشندى فى صبح الأعشى أن وظيفة القضاء فى الحجاز تعتبر الوظيفة الثانية بعد ولاية مكة وولاية المدينة المنورة [٤] . وإذا كان قضاء

---

(١) على بن الحسين السليمان : العلاقات الحجازية ، ص ٢٠٨ ؛ السباعى: تاريخ مكة ، جـ ١ ، ص ٢٤٤ .
(٢) الطبرى : الأرج المسكى ، ورقة ١١٦ .
(٣) الفاسى : العقد الثمين ، جـ ٨ ، ص ٢٠-٢١ .
(٤) القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ ١٢ ، ص ٢٤٠-٢٤١ .

البيت الحرام والمسجد النبوي بهذه الأهمية فلابد أن يكون الذى يتولى هذه الوظيفة من كبار العلماء والفقهاء. ومن مشاهير بيت الطبري الذين تولوا قضاء مكة المكرمة هم :

القاضي محي الدين أبو جعفر أحمد بن أبى بكر بن محمد بن ابراهيم الطبري المكي الشافعي ، ولد سنة ٥٧٣هـ/١١٧٧م بمكة ، وقد تلقى تعليمه بمكة المكرمة على يد زاهر بن رستم ويونس الهاشمي ، وأبى المظفر بن علوان ، وأبى بكر بن حرز الله القفصي ، وابن أبى الصيف وتفقه عليه وسمع عليه كتابه فى الطاعون وغيره من الكتب ودرس وأفتى ، وكتب بخطه كتباً علمية . وتولى القاضي محي الدين أبو جعفر أحمد الطبري منصب القضاء فى تاريخ لم تذكره المصادر المتداولة إلا أنه توفى فى صفر سنة ٦١٤هـ/١٢١٧م بينما كان متولياً لمنصب القضاء . وكان أخوه تقي الدين أبو الحسن علي بن أبى بكر بن محمد بن ابراهيم الطبري المكي الشافعي ، اماماً للمقام وخطيباً للمسجد الحرام. وذكر الفاسي أن الشيخ تقي الدين أبو الحسن تلقى العلم على يونس بن يحيي الهاشمي ، الذي قرأ عليه صحيح البخاري وقرأ على زاهر بن رستم

كتاب جامع الترمذى [١] ، وسمعه على بن أبى الصيف ، وغيرهم . [٢]

وبالاضافة الى هؤلاء العلماء الأجلاء تلقى تقى الدين العلم على يد أبى الحسن عبد اللطيف بن اسماعيل بن أبى سعد النيسابورى ، وظل متولياً وظائفه الدينية حتى توفى فى أوائل سنة ٦٤٠هـ/١٢٤٢م بمكة المكرمة. [٣]

ومن قضاة مكة فى العصر الأيوبي ، عبد الكريم بن يحي بن عبد الرحمن الشيبانى الطبرى المكى الشافعى . [٤] ويبدو مما ذكره الفاسى أنه تولي القضاء سنة ٦٣٢هـ/١٢٣٤م واستمر فى هذا المنصب حتى عزل فى شوال سنة ٦٤٥هـ/١٢٤٧م وتوفي فى ربيع الأول سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م. [٥]

---

(١) جامع الترمذى : صنف هذا الكتاب أبو عيسى محمد بن عيسى بن سوره السلمى البوغي الترمذى سنة ٢٠٩هـ - ٢٧٩ هـ وهو من أئمة علماء الحديث وحفاظه من أهل ترمذ ، الواقعة على نهر جيجون وكتاب جامع الترمذى فى علم الحديث وهو جزئين . انظر ، تهذيب التهذيب ، جـ ٩ ، ص ٣٨٧ - ٣٨٩ ؛ الزركلى : الاعلام ، جـ ٧ ، ص ٢١٣ ؛ دائرة المعارف الاسلامية جـ ٥ ، ص ٢٢٨ - ٢٣١ .

(٢) الفاسى : العقد ، جـ ٣ ، ص ٢٠-٢١ ؛ السخاوى : التحفة اللطيفة جـ ١ ، ص ١٥٨ .

(٣) الفاسى : العقد ، جـ ٧ ، ص ١٤٣ - ١٤٤ .

(٤) المصدر السابق ، جـ ٥ ، ص ٤٨١ - ٤٨٢ .

(٥) السخاوى : التحفة اللطيفة ، جـ ٣ ، ص ٢٨٥ - ٢٨٦ .

والى جانب هذه الطائفة من العلماء التى تنتمي الى بيوت علمية معينة أشهرها بيت الطبرى ، هناك فقهاء وعلماء وقضاة ومدرسين ، وفدوا الى الحجاز من الشام والعراق ومصر وغيرها من البلاد الإسلامية ، وجاوروا بمكة المكرمة واستوطنوها . وكان لهؤلاء الفقهاء والعلماء الأثر الكبير الواضح فى ازدهار الحياة العلمية فى بلاد الحجاز فى العصر الأيوبى . واحتوى كتاب العقد الثمين للفاسى على معلومات قيمة عن هذه الطائفة من العلماء .

ومن أشهر علماء الشافعية الذين وفدوا الى بلاد الحجاز الشيخ أبو عبد الله محمد بن على بن اسماعيل بن أبى الصيف اليمنى الفقيه المحدث الشافعى . كان إمام وقته واستوطن مكة المكرمة وآلت اليه رئاسة الفقه والحديث وغيرهما . ومن كتبه زيارة الطائف ، فضائل شعبان ، ميمون فى فضائل أهل اليمن وغيرها . ولم يزل بمكة المكرمة على السيرة المحمودة حتى توفى بها فى ذى الحجة من سنة ٦٠٩ هـ/١٢١٢ م.(١)

أما الشيخ مكين الدين أبو شجاع زاهر بن رستم محمد الأصبهانى الأصل البغدادى المولد ، فقد تفقه على المذهب الشافعى ، وصحب الصوفية

---

(١) الفاسى ، العقد ، جـ١ ، ص ٤١٥ ، ٤١٦ ؛ الملك الغسانى : العسجد المسبوك ، ص ٣٤١ ؛ البغدادى : هداية العارفين ، جـ٢ ، ص ١٠٨

برباط شيخ الشيوخ مدة وكان يسكن في بغداد ، ثم أقام في مكة المكرمة وقد تعلم على يديه كل من أحمد بن أبي بكر بن محمد بن ابراهيم وأخوه على من البيت الطبري [1] وكان اماماً للمقام الشريف بالمسجد الحرام. وظل يؤم الناس في مقام ابراهيم عليه السلام أعواماً الى أن أصبح عاجزاً فانقطع في منزله ، وقد توفي بمكة المكرمة سنة ٦٠٩هـ/ ١٢١٣ م [2].

ويعتبر الشيخ أبو بكر بن ابراهيم بن محمد الأربلي الملقب بالشمس من أشهر العلماء الشافعية بمكة المكرمة في العصر الأيوبي ، نزل بمكة المكرمة ودرس بها عن يونس الهاشمي ، وعبد الرحمن بن أبي جرمي ، مع القاضي اسحاق الطبري [3]. وتوفي سنة ٦١٣هـ/ ١٢١٦ م بالموقف في يوم عرفة.

أما الفقيه الشافعي إمام الدين أبو طالب عبد المحسن بن أبي العميد الذي كان إماماً للمقام ، فقد تفقه وتلقى علومه بهمذان وفي فارس وبغداد على يد جماعة العلماء ، ثم رحل في طلب العلم الى دمشق والقاهرة ثم الاسكندرية وأيضاً الى مكة المكرمة . وقد روى الحديث في كل من مكة المكرمة والمدينة المنورة وغيرهما . وأقام الشيخ إمام الدين برباط المراغي بمكة المكرمة حتى مات سنة ٦٢٤هـ/ ١٢٢٦م [4].

---

(١) الفاسي : العقد جـ٣ ، ص٢٠-٢١ ؛ جـ٧ ، ص ١٤٣-١٤٤ ؛ السخاوي : التحفة اللطيفة جـ ١ ، ص ١٥٨ .

(٢) الفاسي : العقد ، جـ ٤ ، ص ٤٢٦-٤٢٧.

(٣) الفاسي : العقد ، جـ ٨ ، ص ١١-١٢ .

(٤) السخاوي : التحفة اللطيفة ، جـ٣ ، ص ٢٩٨-٢٩٩ ؛ رباط المراغي : انظر ماسبق ، الفصل الرابع ص١٢٩ .

ويعتبر القاضي الشيخ تاج الدين أبو القاسم الخضر بن عبد الواحد ابن علي بن الخضر المعروف بابن السابق الشافعي من فقهاء الشافعية وكبارهم . جاء الى مكة المكرمة ، واستوطنها وجاور فيها حتى وفاته ، وكان يدرس في الحرم الشريف ، ويفتي فيه ويروى الأحاديث من صحيح مسلم . وقد ذكر الفاسي أنه كان قاضياً بمكة المكرمة في سنة ٦٢٦هـ/١٢٢٨م ، ولمدة سنتين بعدها . وتوفي القاضي تاج الدين سنة ٦٣١هـ/١٢٣٣م.[1]

وقدم الى مكة المكرمة الفقيه المحدث المقرئ جعفر بن عبد الرحمن بن جعفر بن عثمان البجائي المولد ، الذى يكنى أبا الفضل ، ولد ببيجان[2] سنة ٥٨٨هـ/١١٩٢م وعاش في مكة . روى عن القاضي أبي نصر محمد بن هبة الله بن جميل الشيرازي ، وحدث عنه بالمدرسة المنصورية المظفرية بمكة المكرمة . وقد سمع منه بالمدرسة المنصورية الحافظ شرف الدين الدمياطي[3] . وظل بمكة المكرمة حتى وفاته ٦٤٤هـ/١٢٤٦م.[4]

---

(١) الفاسي : العقد ، جـ ٤ ، ص ٣١٦-٣١٧ .

(٢) بيجان : إقليم يقع على الساحل الغربي لبحر قزوين في الشمال الغربي من ايران . انظر ياقوت الحموي : معجم البلدان ، جـ١ ص ١٢٨ .

(٣) شرف الدين الدمياطي : أبو محمد عبد المؤمن بن خلف ابن الحسن الدمياطي ، الملقب بشرف الدين ، كان إمام أهل الحديث في زمانه في جميع أنواعه ، الجامع بين الدراية والرواية بالسند العالي فقيهاً اصولياً ، نحوياً لغوياً أديباً شاعراً ولد بدمياط سنة ٦١٣هـ/١٢١٦م وقرأ بها الفقه والأصول والفرائض على قاضيها ثم رحل الى القاهرة ثم الى الحجاز وبلاد الشام وبغداد وبعد ذلك عاد الى بلاده وقد توفي في السنة الخامسة بعد السبعمائة ، الآسنوى طبقات الشافعية ، جـ ١ ، ص ٥٥٣-٥٥٤ .

(٤) الفاسي : العقد ، جـ ٣ ، ٤٢٦ .

ومن همذان وفد الى مكة المكرمة ونزلها أبو بكر بن عمر بن شهاب الصوفى ، تتلمذ على يد يونس الهاشمي . وشيخ الحرم أبي الفرج يحي بن ياقوت البغدادى . وقد روى الحديث وسمع منه الحافظ شرف الدين الدمياطي برباط خاتون كتاب " فضائل العباس لحمزة السّهمى " والمحدث تقي الدين عبد الله بن عبد العزيز المهدوى . وعاش أبو بكر الصوفى فى مكة المكرمة حتى وفاته سنة ٦٤٧هـ/١٢٤٩م .[١]

وأما الفقهاء والعلماء المالكية : الذين عاشوا فى مكة المكرمة فى العصر الأيوبي ولعبوا دوراً هاماً فى الحياة العلمية فى الحجاز فمنهم :

أبو الحسن على بن عبد الله بن حمود الفاسى المكناسى إمام المالكية بالحرم الشريف ، يرجع أصله الى مكناسة الزيتون فى المغرب ، حج سنة ٥١٢هـ/١١١٨م ، وتلقى علومه على يد أبى بكر الطرطوشي[٢] : سنن أبى داود ، وصحيح مسلم أخذه عن ابن طرخان ، وجامع أبى عيسى بن المبارك ، ودخل

---

(١) الفاسى : العقد ، جـ ٨ ، ص ١٦-١٧ .

(٢) ابو بكر الطرطوشي : محمد بن الوليد بن محمد بن خلف العرسى الفهرى الأندلسى ابو بكر الطرطوش ويقال له ابن رندقة . أديب من فقهاء المالكية وهو من أهل طرطوشة بشرق الأندلس. تفقه ببلاده ثم رحل الى مصر والشام ، وأقام مدة فى الشام ، ثم رحل منها الى الإسكندرية فتولى التدريس فيها وأقام فيها الى أن توفى . وله مؤلفات كثيرة ، أنظر الزركلى : الأعلام جـ ٧ ، ص ٣٥٩ ؛ الضبى : بغية الملتمس ، ص ١٢٥-١٢٩ .

الأندلس مرابطاً ثم حج ثانية وجاور وأصبح اماماً بالحرم الشريف وعاش بمكة حتى توفى بها سنة ٥٧٣هـ/١١٧٧م.[١]

ومن مكناسه وفد الى مكة المكرمة أيضاً جمال الدين أبو عبد الله محمد ابن عبد الله بن الفتوح المكناسى المحاصر إمام المالكية بالحرم الشريف سنة ٥٨٨هـ/١١٩٢م .وقد وقف كتاب " المقرب " لابن أبى زمنين[٢] المالكى، فى ستة مجلدات وقفه على المالكية والشافعية والحنفية الذين يقدمون بمكة المكرمة ، وجعل مقر ذلك السفر النفيس بخزانة المالكية بمكة . وقد توفى محمد بن عبد الله المكناسى سنة ٥٩٢هـ/١١٩٥م.[٣]

أما الإمام ضياء الدين أبو عبد الله محمد بن عمر بن محمد بن أحمد التوزرى فهو إبن إمام المالكية بالحرم الشريف ، ولد ضياء الدين بتوزر سنة ٥٩٨هـ/١٢٠١م ، وقدم مكة المكرمة وهو شاب يافع قبل سنة ٦٢٠ هـ ١٢٢٣م ، تلقى علومه الدينية على يد أبى الحسن وصحب الشيخ شهاب الدين

---

(١) الفاسى : العقد ، جـ ٦ ، ص ١٨١.

(٢) ابى زمنين المالكى : هو ابو عبد الله محمد بن عبد الله بن ابى زمنين الالبيرى المالكى المتوفى سنة ٣٩٩هـ / ١٠٠٨م ، انظر الفاسى : العقد جـ ٢ ، ص ٧٤.

(٣) الفاسى : العقد الثمين ، جـ ٢ ، ص ٧٤-٧٥.

السهروردی[1] بمكة ، وقرأ عليه كتابه "عوارف المعارف" وكان شاعراً مبدعـــاً .
وبالإضافة الى ذلك ، فقد أفتى ودرس بمدرسة المالكية التى أسسها ابـن الحداد المهدوى بالشبيكة جنوب مكة المكرمة ، ودرس أيضاً بالمدرســة المنصوريـة المظفرية بمكة وبقى فيها حتى وفاته .

وكان للفقهاء الحنابلـة دورهم فى الحياة العلمية فى بلاد الحجــاز فى العصر الأيوبى ومن أشهرهم : أبو محمد مبارك بن على بن الحسـين البغدادى ، المعروف بابن الطباخ الحنبلى ، إمام الحنابلة بالمسجـد الحرام . تلقى علومه على يد أبى الحسين عبيد الله بن محمد البيهقى فى كتابـه " دلائل النبوة للبيهقى "[2] وروى كتاب " تاريخ مكة للأزرقى " عن أبى القاسم

---

(١) الشيخ شهاب الدين السهروردى : هو ابو حفص عمر بن محمد بن عبد الله ابن محمد بن عمويه ، واسمه عبد الله البكرى ، الملقب شهاب الدين السهروردى كان فقيهاً شافعياً وشيخاً صالحاً ورعاً ، كثير الاجتهاد فى العباد ة وتتلمذ عليه خلق كثير من الصوفية فى المجاهدة وله مؤلفات قيمة منها كتابـــه "عوارف المعارف" ، وهو أشهرها ، وقد حج عدة مرات وربما جاور فى بعـض حججه . وكان مولده سنة ٥٣٩هـ/ ١١٤٣م ، وتوفى فى سنة ٦٣٢هـ/ ١٢٣٦م ببغداد ، انظر ابن خلكان : وفيات الأعيان ، جـ٣ ، ص ٤٤٦-٤٤٧ ؛ البغدادى : هداية العارفين ، جـ٢ ، ص ٧٨٥ - ٧٨٦ .

(٢) دلائل النبوة للبيهقى مؤلف هذا الكتاب هو أبو بكر احمد بن الحسين بن على البيهقى من أئمة الحديث ولد سنة ٣٨٤هـ/ ٩٩٤م فى إحدى قرى بيهق فى نيسابور ثم رحل منها الى بغداد ثم الكوفة وأخيراً مكة وصنف كثيراً من المؤلفات منها "دلائل النبوة" ، أنظر السبكى : طبقات الشافعية ، جـ٣ ، ص ٣ ؛ الزركلى : الأعلام ، جـ١ ، ص ١١٣ .

هبة الله بن أحمد المقرى . وروى أيضاً عن أبى القاسم بن الحصين والقاضى أبى بكر الأنصارى وآخر أصحابه لاحق بن عبد المنعم الأرتاحى الذى منحه اجازة. وتوفى إبن الطباخ الحنبلى سنة ٥٧٥هـ/ ١١٧٩م.(١)

أما أبو الفتح محمد بن عبد الله بن الحسين السهروى الحنبلي إمام الحنابلة بالحرم الشريف ، فقد تلقى علومه على أيدى جماعة من العلماء فى بغداد والقاهرة والإسكندرية . ثم توجه الى مكة المكرمة واستوطنها ، وأمّ فيها الناس بمقام الحنابلة سنين ، وحدث فيها بالكثير حتى وفاته بمكة المكرمة سنة ٥٩٠هـ/ ١١٩٣م .(٢)

ومن أئمة الحنابلة بالحرم الشريف المحدث نصر بن محمد بن على ابن أبى الفرج الهمذاني النهاوندى ثم البغدادى المعروف بالحصرى .(٣) قرأ القرآن الكريم على يد أبى بكر محمد بن عبد الله الزاغوث ، وأبى الكرم المبارك الشهرزورى ، وأبى منصور مسعود بن عبد الواحد بن الحصين وسواهم ، وتتلمذ على يد أبى الوقت السجزى نسبة الى سجستان " مسند الدارمى "(٤) ومن الشريف أبى طالب النقيب " سنن أبى داود " ومن

(١) ابن فهد : إتحاف الورى ورقة ٢٤٠-٢٤١ ؛ الفاسى : العقد الثمين جـ ٧ ص ١١٩-١٢٠
(٢) الفاسى : العقد الثمين ، جـ٢ ، ص ٥٢ .
(٣) الفاسى : العقد ، جـ٧ ، ص٢ ٣٣-٣٣٤ ؛ ابوشامة : الذيل على الروضتين ، جـ٧-٨ ، ص ١٣٣
(٤) مسند الدارمي : هو كتاب السنن المسمى (بمسند الدارمي) ، وهو كثير الأحاديث المرسلة والمنقطعة والمعضلة والمقطوعة وكاتبه هو ابو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن بهرام الدارمى السمرقندى المتوفى سنة ٢٥٥هـ/٨٦٨م حاجى خليفة : كشف الظنون جـ٢ ، ص ١٦٨٢-١٦٨٣ ، الزركلى : الأعلام ، جـ ٤ ص ٢٣٠ - ٢٣١ .

أبى زرعه المقدسى " سنن النسائى " وابن ماجة " مسند الشافعى " وفضائل القرآن " وأبى عبيد وغيرهم كثيرون . وقد تتلمذ على يده جماعة من الحفاظ وعلية القوم منهم : برهان الدين ، والزكى البوزالي والضياء المقدسى. والشيخ الحصرى ، هذا خرج من بغداد الى مكة المكرمة وجاور بها نحو عشرين سنة . وكان يصلى إماماً فى مقام الحنابلة بالمسجد الحرام ويروى الحديث . وفى آخر حياته توجه الى اليمن مسافراً ، بعدما إشتد القحط بمكة ، فأدركه أجله باليمن . وقد اختلف فى سنة وفاته فقيل فى سنة ٦١٨هـ/١٢٢١م وقيل فى سنة ٦١٩هـ/١٢٢٢م وقد ذكرت المصادر أنه إشتغل بالأدب الى جانب براعته فى علم الحديث .(١)

ومن الفقهاء الأحناف نجيب الدين أبو بكر بن أبى الفتح بن عمر ابن على بن أحمد بن محمد السِّجزى الحنفى إمام الحنفية بالمسجد الحرام وقام هذا الإمام بتدريس كتاب " أخبار مكة للأزرقى " عن المبارك بن الطباخ سماعاً مع "رسالة المهدى وإفتخار الحرمين " و " رسالة الحسن البصرى" على الشيخ الإمام العالم نجيب الدين أبى بكر بن الشيخ الإمام ابى الفتح ابن أبى عمر بن على السجستانى إمام مقام الحنفية بمكة وكان ذلك فى حوالى سنة ٦١٦هـ/١٢١٩م .(٢)

---

(١) الفاسى : العقد الثمين ، جـ ٧ ، ص ٣٣٤ .

(٢) المصدر السابق ، جـ ٨ ، ص ١٨-١٩ .

ولم يقتصر دور علماء الحجاز فى العصر الأيوبى على الإشتغال فى العلوم الدينية فقط بل إشتغل بعضهم فى العلوم التجريبية بجانب العلوم الدينية ، وعلى سبيل المثال يذكر صاحب كتاب " العسجد المسبوك " أن الإمام أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن ابن وهبان المعروف بابن أفضل الزمان ، كان عالماً متبحراً فى علوم كثيرة وبرع فيها كالفرائض والحساب والنجوم والهيئة والمنطق والأصولين والفقه ، ثم ختم أعماله بالزهد ولبس الخشن وأقام بمكة المكرمة حتى توفى سنة ٥٨٥هـ/١١٨٩ (١) .

أما المدينة المنورة كان لها أيضاً نصيب من العلماء والقضاة والفقهاء الذين جاوروا بها ، واتخذوها موطناً ، وأثروا فى الحياة العلمية والثقافية فى الحجاز فى العصر الأيوبى . ويذكر السخاوى أن عبد الله بن محمد بن محمد ابن أبى الحسن الإمام العالم الأوحد البارع ، المسعودى الهولى ، نزل المدينة المنورة وكان إماماً لمسجد الرسول عليه الصلاة والسلام ، وأقام بها فى حدود سنة ٦٢٠هـ/١٢٢٣م الى أن توفي فيها فى سنة ٦٥٠هـ/١٢٥٢م . وقد روى الشيخ عبد الله بن محمد الحديث النبوى عن جماعة وقرأ الفقه ، وبرع فيه بالإضافة الى براعته فى الفضائل وكتب الخط الحسن (٢) .

---

(١) الغسانى : العسجد المسبوك ، ص ٢٠٨ .

(٢) السخاوى : التحفة اللطيفة ، جـ ٣ ، ص ٢٣٦-٢٣٧ .

ومن علماء المدينة المنورة أحمد بن عبد الله بن محمد بن شيخ الحجاز سمع منه بالروضة النبوية ، المحدث أبو محمد بن عبد العزيز المهدى مع القطب القسطلانى الطبرى القاضى سنة ٦٤٧هـ/١٢٤٩م ، ولشيخ الحجاز مؤلفات منها : " النخبة المدنية " وتوفى سنة ٦٩٤هـ/١٢٩٤م بمكة المكرمة.(١)

ومن أشهر علماء المدينة العفيف أبو محمد عبد السلام بن حسن محمد ابن مزروع بن أحمد بن عوفه المضرى البصرى المكى ، نزيل المدينة المنورة ومحدثها .ولد سنة ٦٢٥هـ/١٢٢٧م بالبصرة . تتلمذ على أبى القاسم يحيى ابن قميرة وعلى يد شيخ الحرم بدر الشهبانى ، وحدث وسمع منه كبار الناس والأعيان ، وكان ذا معرفة وإلمام بأنواع العلم ، وله نظم ، مع تدين وعبادة. حج أربعين حجة متوالية ، كان يقدم فى أكثرها أو فى كلها من المدينة المنورة لأنه كان قد إستوطنها وصارت له ذرية فيها . وقد حدث عن ياقوت العزى وعن كثيرين غيره . وسمع منه النصير أبو المظفر يوسف بن اسماعيل ابن الياس الخولى ، والأمين الأقشهرى والبدر محمد بن أحمد بن خالد الفارقى . وكانت وفاته سنة ٦٩٦هـ/١٢٩٦م بالمدينة المنورة بعد مجاورته فيها خمسين سنة .(٢)

---

(١) السخاوى : التحفة اللطيفة ، جـ ١ ، ص ١٧٩.

(٢) المصدر السابق ، جـ ٣ ، ص ٢٣٦ - ٢٣٧.

وهكذا لم تقل مدن بلاد الحجاز أهمية عن حواضر العالم الإسلامي الهامة مثل بغداد ودمشق والقاهرة والقيروان كمراكز حضارية هامة في تاريخ الحضارة والثقافة الإسلامية . فقد إستوطنها كثير من الفقهاء والعلماء في مختلف المذاهب الإسلامية الذين قدموا من بلدان مختلفة واستوطنوا بلاد الحجاز . وقد برع هؤلاء الفقهاء والعلماء في مختلف العلوم الدينية وتركوا أثراً واضحاً في الحياة العلمية في مدن بلاد الحجاز خاصة في مكة المكرمة والمدينة المنورة .

-- ٥ --

الخاتمة

((بسم الله الرحمن الرحيم))

وبه نستعين

بحمد الله تعالى وتوفيقه ..

قد انتهى موضوع بحثي الذي قام بدراسة شاملة متكاملة عن أوضاع بلاد الحجاز في العصر الأيوبي ، وقد أوضحت الدراسة أن أمراء مكة المكرمة كانوا ، قبل العصر الأيوبي ، تارة يميلون الى الدولة العباسية في بغداد وتارة أخرى يميلون الى الدولة الفاطمية في القاهرة مما أدى الى الفوضى والاضطرابات في مكة المكرمة .

وقد أثبتت الدراسة أن أشراف مكة المكرمة كانوا يميلون أكثر الى الدولة الفاطمية ، ونستطيع أن نبرهن على ذلك من خلال السفارتين اللتين قام بهما عمارة اليمني الى البلاط الفاطمي لتوطيد علاقة أشراف مكة بالفاطميين. وقد إستمر الحال كذلك في بلاد الحجاز حتى قضى صلاح الدين الأيوبي على الدولة الفاطمية في مصر ، وأدى ذلك الى زوال نفوذ الفاطميين عن بلاد الحجاز ،ليحل محله النفوذ الأيوبي .

وألقت الدراسة الأضواء على إمتداد النفوذ الأيوبي على بلاد الحجاز وأوضحت الدراسة موقف صلاح الدين الأيوبي من محاولة الغزو الصليبي للبحر الأحمر وبلاد الحجاز، ودوره الجهادي الذي قام به لصد هذا

الخطر . وعالجت الدراسة أوضاع بلاد الحجاز خلال العصر الأيوبي عندما إنتقل الحكم فيها من أشراف مكة والمدينة من الحسنيين والحسينيين الى أسرة قتادة التى مدت نفوذها حتى شمل ينبع ،ومكة المكرمة ،والمدينة المنورة . وتبع ذلك ماحدث من نزاع بين أمير مكة المكرمة وأمير المدينة المنورة ، مما أدى الى إضطرابات وفتن دعت الملك المسعود صاحب اليمن الى التدخل وبسط نفوذه على مكة المكرمة ، وتوليته والياً من قبله على مكة المكرمة . وأوضحت الدراسة تفاقم النزاع الذى حدث بين سلاطين الأيوبيين فى مصر وآل رسول فى اليمن ، ومحاولة كل منهما السيطرة على بلاد الحجاز ،حتى زادت حالة الفوضى تفاقماً وإضطراباً ، مما دفع أمراء مكة المكرمة والمدينة المنورة الى تناسى خلافاتهم المستمرة .

ومن الناحية الإقتصادية ،شرحت الدراسة أهمية بحر الحجاز أو البحر الأحمر بإعتباره الطريق البحرى الموصل الى بلاد الحجاز حيث الحرمين الشريفين ، وظل البحر الأحمر فى العصر الأيوبى بحراً اسلامياً مغلقاً .وألقت الدراسة الضوء على العوامل التى ساعدت على إزدهار موانىء بلاد الحجاز خاصة ميناء جدة الذى ساعد على إزدهار تجارة مكة المكرمة ،وميناء ينبع الذى كان له الأثر فى إزدهار المدينة المنورة تجارياً . وإذا كان البحر الأحمر وموانئه ،قد ساعد على إزدهار تجارة بلاد الحجاز ،فإن تجار الكارمية الذين كانوا ينتقلون بين البحر الأحمر والمحيط الهندى ،قد ساهموا أيضاً فى هذا الإزدهار التجارى فى بلاد الحجاز ، وذلك بالسلع التى كانوا يجلبونها من المحيط الهندى خاصة التوابل والبهارات كالفلفل والحبهان

والقرفة الى غير ذلك من الأنواع ، فضلاً عن بعض البخور والعطور. وقد عملت الدولة الأيوبية على حماية الكارمية من قراصنة البحر الأحمر ، كما فعلت الدولة الفاطمية من قبل .

وشاهدت بلاد الحجاز في العصر الأيوبي إزدهاراً تجارياً نتيجة قدوم القوافل الواردة من الشام واليمن سواء في مواسم الحج أو غيرها من المواسم ، بحيث كانت أسواق مكة المكرمة والمدينة المنورة وجدة تحفل دائماً بشتى أنواع السلع وبكثير من التجار الذين كانوا سبباً في إزدهار ونشاط التجارة فيها . وأثبتت الدراسة أن هناك أنواعاً من الضرائب والمكوس ، فرضت قبل عهد صلاح الدين الأيوبي ، وأن صلاح الدين الأيوبي قد ألغى هذه الضرائب وعوض أمراء مكة عن تلك المكوس . كما جاء أيضاً من خلال دراستنا أن مكة المكرمة كانت تستورد ما تحتاجه من الخضروات والفواكه من الطائف والمدينة المنورة اللتان تعتبران مدينتين زراعيتين . وكانت المدينة المنورة والطائف تصدران ما يفيض عن حاجتهما الى مدن الحجاز الأخرى . وانتشرت في بلاد الحجاز في العصر الأيوبي بعض الصناعات خاصة في المدينة المنورة أهمها الصناعات التي تقوم على الزراعة ، وصناعة الأسلحة وغيرها من الصناعات .

ولكي تستكمل دراسة الأحوال الإقتصادية لبلاد الحجاز في العصر الأيوبي كان لابد أن تتعرض الدراسة للنقود المتداولة فيها في تلك الفترة التاريخية ، وأوضحت الدراسة أن العملات النقدية المتداولة في بلاد الحجاز كانت هي العملات النقدية المتداولة في مصر والشام .

وعند دراسة أوضاع بلاد الحجاز الإجتماعية فى العصر الأيوبى إتضح أنها تشابهت بصورة عامة إذ أن مدن الحجاز وخاصة مكة المكرمة والمدينة المنورة كان فيهما سكان أصليون وغرباء مجاورون ، ثم أحدث صلاح الدين طبقة الآغوات الذين يقومون على خدمة الحرمين الشريفين . أما من ناحية العادات والتقاليد ، فقد تشابهت فى مكة المكرمة والمدينة المنورة ، فأن عادات وتقاليد السكان تشابهت من حيث الإحتفالات الدينية والزواج والولادات وحتى عاداتهم عند الوفاة ، وعاداتهم فى الولائم والأعياد والنزهات حتى فى المأكل والمشرب .

وأوضحت الدراسة والتحليل أن تأثير الفاطميين على بلاد الحجاز فى هذا المجال كان أكثر من تأثير الأيوبيين ، ويبدو هذا الأثر واضحاً فى الملبس وإرتداء بعض الناس الخلع الموشاة بخيوط الذهب والفضة التى أخذوها عن الفاطميين . وقد تأثر سكان بلاد الحجاز فى مأكلهم ومشربهم أيضاً بالوافدين إليهم من بلاد الشام ومصر والهند .

أما النشاط العمرانى والخدمات الإجتماعية فقد عالجت الدراسة موضوع بناء المصانع والبرك ، وحفر الآبار والعيون . كما أشارت الى الأربطة العديدة التى أنشئت فى مكة المكرمة والمدينة المنورة ، والدور الكبير الذى لعبته فى تأمين السكن والإستقرار لكثير من طلاب العلم الوافدين والى الحجاج وكثير غيرهم ممن يقصدون مكة المكرمة والمدينة المنورة . وساعد على تعدد هذه الأربطة والعناية بها والخدمات الإجتماعية التى كانت تؤديها

أن بعض السلاطين والأغنياء هم الذين كانوا ينفقون عليها ، وقد أوقفوا لها أوقافاً لإستمرار تزويدها بكل ما يحتاجه المقيمون فيها . وألقت الرسالة كثيراً من الضوء على الحياة العلمية والثقافية في بلاد الحجاز في العصر الأيوبي ، وتتبعت الدراسة التعليم في مكة المكرمة والمدينة المنورة إبتداء من الحرمين الشريفين ، ثم في الكتاتيب وبيوتات العلم والمدارس .

ويوضح البحث كيف أن هذه المدارس عنيت عناية تامة بالعلوم الدينية في مختلف المذاهب الإسلامية . وقد وفد الى مكة المكرمة والمدينة المنورة كثير من العلماء والفقهاء من مختلف البلاد الإسلامية والعربية ، وساعدوا على نشر العلم فيهما . زد على ذلك عناية الحكام المسلمين في الناحية العلمية لهاتين المدينتين نظراً لمكانتهما الدينية المقدسة .

والدراسة أوضحت أنه بفضل إهتمام الحكام المسلمين ، وبعض بيوتات العلم التي إهتمت بنشر العلم ، الى جانب دورها في الخطبة بالمساجد وأعمال القضاء ، وبفضل العلماء والفقهاء الذين ساهموا في نشر العلم كل ذلك أدى الى إزدهار بلاد الحجاز العلمي ، والثقافي في العصر الأيوبي .

وهكذا يتضح من الدراسة أن بلاد الحجاز مرت بفترة إزدهار في النواحي الإقتصادية والإجتماعية ، والعلمية ، والثقافية في العصر الأيوبي .

وفي الختام أكرر أملي أن يكون هذا البحث قد حقق الغاية المرجوة له في خدمة التاريخ وطلابه . والله ولي التوفيق !

قائمة المصادر والمراجع

(أولا) المصادر العربيـــة

- ابن الأثير (عز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم ، ت ٦٣٠هـ/ ١٢٣٣م)
  * الكامل في التاريخ ، ١٤ جزءاً ، ليدن ١٨٥١-١٨٧٦م.

- ابن أيبك الدواداري (أبو بكر بن عبد الله ، ت ٧٣٦هـ/ ١٣٣٥م)
  * كنز الدرر وجامع الغرر :
  * الجزء السادس: الدرة المضية في أخبار الدولة الفاطميـــة تحقيق صلاح الدين المنجد ، القاهرة ١٣٨٠هـ/ ١٩٦١م.
  * الجزء السابع : الدر المطلوب في أخبار بني أيوب ، تحقيـــق سعيد عبد الفتاح عاشور ، القاهرة ١٣٩١هـ / ١٩٧٢م.

- ابن بطوطة (ابو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد ، ت ٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م)
  * رحلة ابن بطوطة المسماة (تحفة النظار في غرائب الأمصا ر وعجائب الأسفار) ، القاهرة

- ابن تغري بردي (جمال الدين أبو المحاسن يوسف ، ت ٨٧٤هـ/ ١٤٧٠م)
  * النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، ١٤ جزءاً ، القاهرة ١٩٢٩-١٩٧٢م .

- ابن جبير (أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير الكناني الأندلســـي الشاطبي البلنســي ، ت ٦١٤هـ/ ١٢١٧م)
  * رحلة ابن جبير ، ط بيروت ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م.

- ابن الجوزى (جمال الدين ابوالفرج عبد الرحمن بن محمد بن الجوزى الحنبلى ، ت ٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م)
  * منير الغرام في فضائل البقاع والأماكن ، مخطوط مصور على ميكروفيلم بمعهد المخطوطات العربية رقم ٤٣٧ تاريخ .

- ابن حجر العسقلانى (أبو الفضل أحمد بن على ، ت ٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م)
  * تهذيب التهذيب ، الجزء التاسع ، الطبعة الأولى ، حيدر آباد - الهند ١٣٢٦هـ

- ابن حوقل (محمد بن على بن حوقل البغدادى الموصلى أبو القاسم ، ت ٣٥٠هـ/ ٩٦١م)
  * صورة الأرض ، طبعة ليدن ، ١٩٣٨م .

- ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد ، ت ٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م)
  * تاريخ ابن خلدون المسمى " بكتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر " ، الجزء الرابع ، ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م .

- ابن خلكان (ابو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبى بكر ، ت ٦٨١هـ/ ١٢٨٢م)
  * وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان :
  الجزء الاول والثانى : تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، القاهرة ١٩٤٨م .

الجزء الثالث : حققه إحسان عباس ، بيروت - لبنان ١٩٧٠م

- ابن زيني دحلان (أحمد بن زيني ، ت ١٣٠٤هـ/١٨٨٦م)
  * خلاصة الكلام في بيان أمراء البيت الحرام ، القاهرة ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م .

- ابن شداد (بهاء الدين يوسف بن رافع ، ت ٦٣٢هـ/ ١٢٣٤م)
  * النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (سيرة صلاح الدين) ، تحقيق جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٦٤م .

- ابن الضياء (أبو البقاء محمد بن احمد بن الضياء القرشي الحنفي المكي ، ت ٨٥٤هـ/ ١٤٥٠م)
  * تاريخ مكة المشرفة والمسجد الحرام والمدينة المنورة ، مخطوط مصور على ميكروفيلم بمعهد المخطوطات العربية رقم ١٢٨ تاريخ

- ابن ظهيرة (جمال الدين محمد جار الله بن محمد نور الدين بن أبي بكر علي ، ت ٩٨٦هـ/١٥٧٨م)
  * الجامع اللطيف في فضل مكة وأهلها وبناء البيت الشريف ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٣٥٧هـ/ ١٩٣٨م .

- ابن العماد الحنبلي (ابو الفلاح عبد الحي ، ت١٠٨٩هـ/ ١٦٧٨م)
  * شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، ٨ أجزاء ، القاهرة ١٣٥٠هـ/ ١٣٥١هـ

- ابن فرج (عبد القادر احمد بن محمد بن فرج)
  * السلاح والعدة فى تاريخ جدة ، مخطوط بمكتبة الحرم المكى ، رقم ٢٨ تاريخ دهلوى .

- ابن فهد (عمر بن محمد بن محمد بن فهد القرشى الهاشمى المكى ، ت ٨٨٥هـ/ ١٤٨٠م)
  * إتحاف الورى بأخبار أم القرى ، مخطوط بمكتبة الحرم المكى رقم ٢ تاريخ دهلوى .

- ابن كثير (اسماعيل بن عمر ، ت ٧٧٤هـ/ ١٣٧٣م)
  * البداية والنهاية ، ١٤ جزءاً ، بيروت ، الرياض ١٩٦٦م.

- ابن النجار (ابو عبد الله محمد بن محمود ت ٦٤٣هـ/ ١٢٤٥م)
  * تاريخ المدينة المشرفة ، مخطوط مصور على ميكروفيلم بمعهد المخطوطات العربية ، القاهرة رقم ٢٣٩٩ تاريخ
  * الدرة الثمينة فى فضل المدينة ، مخطوط بمكتبة الحرم المكى رقم ١٩ تاريخ دهلوى .

- ابن واصل (محمد بن سالم ، ت ٦٩٧هـ/ ١٢٩٨م)
  * مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ؛
  أجزاء ١-٣ تحقيق : جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٥٣-١٩٦٠م.
  أجزاء ٤-٥ تحقيق : حسنين محمد ربيع ، القاهرة ١٩٧٢م، ١٩٧٧م.

- ابن الوردى (زين الدين عمر ، ت ٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م)
  * تاريخ ابن الوردى ، جزءان ، القاهرة ١٢٨٥هـ

- أبو شامة (عبد الرحمن بن إسماعيل ، ت ٦٦٥هـ/ ١٢٦٨م)
  * كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين ، جزءان ، القاهرة ١٢٨٧هـ/ ١٨٧٠م .
  * الذيل على الروضتين (تراجم رجال القرنين السادس والسابع) تحقيق عزت العطار ، القاهرة ١٩٤٧م .

- أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكرى الأندلسى ، ت ٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م
  * معجم ما استعجم من أسماء البلدان والمواضع ، الجزء الثالث القاهرة ١٩٤٩م .

- أبو الفدا (الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل بن محمد بن عمر ، ت ٧٣٢ (١٣٣١م)
  * تاريخ ابى الفدا المعروف بالمختصر فى أخبار البشر ، ٤ أجزاء استانبول ١٢٨٦م.

* تقويم البلدان ، باريس ١٨٤٠ م.

- الآسنوى (جمال الدين عبد الرحيم الآسنوى ت ٧٧٢هـ/ ١٣٧٠م)

* طبقات الشافعية ، الجزء الأول ، تحقيق عبد الله الجبورى ، الطبعة الأولى ، بغداد ١٣٩٠هـ .

- الآنصارى (عبد الرحمن بن عبد الكريم الآنصارى ،ت ١١٢٤ هـ / ١١٩٧م)

* تحفة المحبين والأصحاب فى معرفة ما للمدنيين من الأنساب تحقيق محمد العروسى المطوى ، الطبعة الأولى تونس ، ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م .

- بامخرمة (أبو محمد عبد الله الطيب بن أحمد ، ت٩٣٧هـ/١٥٣٠م)

* تاريخ ثغر عدن ، جزءان ، ليدن ١٩٣٦م .

- الجزيرى (عبد القادر بن محمد بن عبد القادر بن محمد بن ابراهيم الآنصارى ،ت ٩٤٤هـ/ ١٥٣٧م)

* درر الفوائد المنظمة فى أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة القاهرة ١٣٨٤هـ .

- حاجي خليفة (مصطفى بن عبد الله كاتب چلبي ،ت ١٠٦٧هـ ١٦٥٦م)
  * كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ،ط استانبول ١٣٦٠هـ/١٩٤١م .

- الحسيني(محمد كبريت بن عبد الله الحسيني المدني الموسوي ، ت ١٠٧٠هـ/١٦٥٩م)
  * الجواهر الثمينة في محاسن المدينة ، مخطوط مصور على ميكروفيلم بمعهد المخطوطات العربية ، القاهرة رقم ١٠٢٢ تاريخ

- الخزرجي الأنصاري (شمس الدين أبو الحسن علي بن الحسن بن أبي بكر بن الحسن ،ت ٨١٢هـ/١٤٠٩م)
  * العسجد المسبوك فيمن تولى اليمن من الملوك ،مخطوط بمكتبة الحرم المكي رقم ٤٨ تاريخ
  * العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية ، جزءان تحقيق محمد بسيوني العسل ، القاهرة ١٣٢٩هـ/١٩١١م .

- سبط ابن الجوزى (شمس الدين ابو المظفر يوسف بن قزاوغلى التركى ت ٦٥٤هـ/١٢٥٧م)
  * مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان ، مخطوط مصور بدار الكتب المصرية ، القاهرة رقم ٥٥١ تاريخ ، الجزء الثامن فى قسمين ، الطبعة الأولى ، حيدر آباد ـ الهند ١٣٧٠ هـ / ١٩٥١م .

- السبكى (تاج الدين أبى نصر عبد الوهاب بن على بن عبد الكافى . ت ٧٧١هـ/١٣٧٠م)
  * طبقات الشافعية الكبرى ، تحقيق عبد الفتاح الحلو و محمود الطناحى ، القاهرة ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م.

- السخاوى (شمس الدين محمد بن عبد الرحمن ، ت ٩٠٢هـ/١٤٩٦م)
  * التحفة اللطيفة فى تاريخ المدينة ، ٣ أجزاء ، القاهرة ١٣٧٦-١٣٧٧هـ/١٩٥٧-١٩٥٨م .
  * الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، ١٢ جزءاً ، القاهرة ١٣٥٣-١٣٥٥هـ/١٩٣٤-١٩٣٦م .

- السمهودى (نور الدين على بن أحمد ، ت ٩١١هـ/١٥٠٥م)
  * وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى ، جزءان ، القاهرة ١٩٥٥م .

- الشافعي (احمد بن محمد بن احمد الحضراوى الشافعي المكى)

* الجواهر المعدة في فضايل جدة وتاريخها . مخطوط بمكتبة الحرم المكى رقم ٢٧ تاريخ

- الشوكاني (محمد بن على الشوكاني ، ت ١٢٥٠هـ/ ١٨٣٤م)

* البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ، جزءا ن القاهرة ١٣٤٨هـ .

- الضبى (احمد بن يحي بن أحمد بن عميرة الضبى ، ت ٥٩٩ هـ / ١٢٠٢م)

* بغية الملتمس فى تاريخ رجال أهل الأندلس، مدريد ١٨٨٤م .

- الطبرى (عبد القادر بن محمد بن يحي ، ت ١٠٣٣هـ/ ١٦٢٣م)

* أنباء البرية بالأنباء الطبرية ، مخطوط مصور على ميكروفيلم بمعهد المخطوطات العربية رقم ٩٠٩ تاريخ

- الطبري (محي الدين على بن عبد القادر الشافعي الحسني ، ت ١٠٧٠هـ / ١٦٥٩م)

* الأرج المسكي في التاريخ المكي ، مخطوط بمكتبة الحرم المكي رقم ٣ تاريخ

- الطبري (محمد بن على بن فضل بن عبد الله ، ت ١١٧٣هـ/ ١٧٥٩م)

* إتحاف فضلاء الزمن بتاريخ ولاية بني الحسن ، مخطوط مصور على ميكروفيلم بمعهد المخطوطات العربية بالقاهرة رقم ٨٧٠ تاريخ

- العصامي (عبد الملك بن حسين ، ت ١١١١هـ/ ١٦٩٩م)

* سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي ، ج ٤ ، القاهرة ١٣٨٠هـ/ ١٩٦١م .

- الغساني (الملك الأشرف أبو العباس الغساني ، ت ٨٠٣هـ/ ١٤٠٠م)

* العسجد المسبوك والجوهر المحكوك في طبقات الخلفاء والملوك ، تحقيق شاكر محمود عبد المنعم ، بغداد ١٩٧٥م

- الفاسى (ابو الطيب تقي الدين محمد بن أحمد بن على ، ت ٨٣٢ هـ ١٤٢٨م)

* تحصيل المرام في تاريخ البلد الحرام ، مخطوط مصور على ميكروفيلم بمعهد المخطوطات العربية بالقاهرة رقم ٩٣٩ تاريخ

* شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ، جزءان ، القاهرة ١٩٥٦

* العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين ، ٨ أجزاء ، تحقيق محمد حامد الفقى ، القاهرة ١٣٧٩هـ/١٩٥٩م)

- الفاكهى (أبو عبد الله محمد بن إسحاق ، ت ٢٨٥هـ/٨٩٨م)

* المنتقى فى أخبار أم القرى ، مخطوط بمكتبة الحرم المكى رقم ١٤ تاريخ

- الفيروزآبادى (مجد الدين ابى الطاهر محمد بن يعقوب ، ت ٨٢٣هـ ١٤١٥م)

* المغانم المطابة في معالم طابه ، تحقيق حمد الجاسر ، الطبعة الأولى ، الرياض ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م.

- قطب الدين (قدسي سـره)

* تاريخ المدينة المنورة ، مخطوط مصور على ميكروفيلم بمعهد المخطوطات العربية بجامعة الدول العربية بالقاهرة رقم ٩٦٥ تاريخ

- القطبي (عبد الكريم بن محب الدين ، ت ١٠١٤هـ/١٦٠٥م)

* تاريخ البلد الحرام المعروف بأعلام العلماء الأعلام ببناء المسجد الحرام ، تحقيق أحمد محمد جمال ، وعبد العزيز الرفاعي ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٣٦٩هـ/١٩٥٠م.

- القلقشندي (أبو العباس أحمد بن علي ، ت ٨٢١هـ/١٤١٨م)

* صبح الأعشى في صناعة الإنشاء ، ١٤ جزءًا ، القاهرة ١٩١٩-١٩٢٢م .

- مجهول المؤلف

* تاريخ اليمن في الدولة الرسولية ، تحقيق هيكوايشي ياجيما طوكيو ١٩٧٦م .

- المقريزى (تقى الدين أحمد بن على ، ت ٨٤٥هـ/١٤٤٢م)

* الذهب المسبوك فى ذكر من حج من الخلفاء والملوك ، تحقيق جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٥٥م .

* المواعظ والإعتبار بذكر الخطط والآثار ، جزءان ، القاهرة ١٢٧٠هـ/ ١٨٥٤م .

* السلوك لمعرفة دول الملوك ، الجزء الأول ، ٣ أقسام ، تحقيق محمد مصطفى زيادة ، القاهرة ١٩٥٦م .

* إتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الحنفاء،
الجزء الأول : تحقيق جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٣٨٧هـ ١٩٦٧م .
الجزءان الثانى والثالث: تحقيق محمد حلمى محمد أحمد ، القاهرة ١٣٩٠-١٣٩٣هـ/ ١٩٧١-١٩٧٣م .

* إغاثة الأمة بكشف الغمة ، تحقيق محمد مصطفى زيادة ، القاهرة ١٩٥٦م .

- ناصرى خسرو ، ت ٤٥٥هـ/ ١٠٦٣م

* سفر نامه ، نقلها الى العربية يحيى الخشاب الطبعة الثانية ، بيروت ١٩٧٠م .

- النهروالى (قطب الدين النهروالى المكى الحنفى ، ت٩٨٨هـ/ ١٥٨٠م)

  * الاعلام بأعلام بيت الله الحرام ، القاهرة ١٣٧٤م.

- ياقوت الحموى (شهاب الدين أبى عبد الله الحموى الرومى البغدادى ت٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م)

  * معجم البلدان ، ٥ أجزاء ، بيروت - ١٩٥٧-١٩٧٧م.

- يحيى بن الحسين (يحيى بن الحسين بن القاسم بن محمد ، ت ١١٠٠هـ / ١٦٨٩م)

  * غاية الأمانى في أخبار القطر اليمانى ، جزءان ، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور ، القاهرة ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م.

٥٥

(ثانيا) المراجع العربية والمترجمة

- ابراهيم رفعت

* مرآة الحرمين، جزءان، القاهرة ١٣٤٤هـ/ ١٩٢٥م.

- أحمد ابراهيم الشريف

* مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٦٥م.

- أحمد بيلي

* حياة صلاح الدين ، القاهرة ١٣٣٨هـ/ ١٩٢٠م.

- أحمد دراج

* إيضاحات جديدة عن التحول في تجارة البحر الأحمر منذ القرن التاسع الهجري . مقال بمجلة الجمعية المصرية التاريخية، القاهرة ١٩٦٨م.

- "عيذاب"

* مقال بمجلة نهضة إفريقية ، يوليو ـ أغسطس ١٩٥٨م

- أحمد رمضان أحمـــــد

* شبه جزيرة سيناء في العصور الوسطى ، القاهرة ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م .

- أحمد السباعـــــي

* تاريخ مكة ، جزءان ، الطبعة الرابعة ، مكة ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م

- أدى شـــــير

* كتاب الألفاظ الفارسية المعربة ، بيروت ١٩٠٨م .

- اسماعيل باشا البغدادى

* هداية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين ، جزءان ، استانبول ١٩٥١ - ١٩٥٥م .

- حسن ابراهيم حســـن

* تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى ، ج ٤ ، الطبعة الاولى ، القاهرة ١٩٦٧م .

* تاريخ الدولة الفاطمية ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٥٨م .

- حسنين محمد ربيع

* النظم المالية فى مصر زمن الأيوبيين ، القاهرة ١٩٦٤م.
* وثائق الجنيزة وأهميتها لدراسة التاريخ الاقتصادى لموانئ الحجاز واليمن فى العصور الوسطى ، الندوة العالمية الأولى لمصادر تاريخ الجزيرة العربية ، قسم التاريخ - كلية الآداب ، جامعة الرياض سنة ١٩٧٧م.
* البحر الأحمر فى العصر الأيوبى ، ندوة تاريخ البحر الأحمر بجامعة عين شمس سنة ١٩٧٩م.

- حمد الجاسر

* بلاد ينبع ، الرياض .

- خير الدين الزركلى

* الأعلام ، ١٠ أجزاء ، القاهرة ١٣٧٨/٧٣ هـ/ ١٩٥٩/٥٤م

- دائرة المعارف الاسلامية

* الترجمة العربية .

- ذو النون المصرى

* عمارة اليمنى ، القاهرة ١٩٦٦م.

- رنسيمـــــــان
  * تاريخ الحروب الصليبية ، جزءان ، نقله الى العربية السيد الباز العريني ، الطبعة الاولى، بيروت لبنان ١٩٦٨م

- سعـــاد ماهـــــر
  * البحرية فى مصر الإسلامية وآثارها الباقية - القاهرة ١٩٦٧م

- سعيد عبد الفتاح عاشور
  * الأيوبيون والمماليك فى مصر والشام ، القاهرة ١٩٧٠م .
  * الحركة الصليبية ، الجزء الثاني ، الطبعة الثانية القاهرة ١٩٧١م

- سليمان عبد الغنى مالكى
  * مرافق الحج والخدمات المدنية فى الأراضى الإسلاميــة المقدسة منذ السنة الثامنة للهجرة حتى سقوط الخلافــة العباسية .
  رسالة ماجستير بإشراف الأستاذ الدكتور أحمد دراج ، كليـة الآداب ، جامعة القاهرة ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م .

- السيد الباز العريـــنى
  * مصر فى عصـــر الأيوبيين ، القاهرة ١٣٧٩هـ/ ١٩٦٠م .

- صبحى لبيب

* التجارة الكارمية وتجارة مصر فى العصور الوسطى ، مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، المجلد الرابع ، العدد الثانى ، مايو ١٩٥٢م .

- عاتق بن غيث البلادى

* على طريق الهجرة ، الطبعة الأولى ١٣٩٩ هـ .
* معجم معالم الحجاز ، ٣ أجزاء ، مكة المكرمة ١٣٩٨ / ١٣٩٩ هـ

- عباس كرارة

* تاريخ الحرمين الشريفين ، الطبعة الخامسة ، مكة المكرمة ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م .

- عبد الرحمن الحوت

* رسالة المسجد والإمام ، بحوث مؤتمر رسالة المسجد ، من ١٥ رمضان ١٣٩٥ - ٢٠ رمضان ١٣٩٥ هـ / ٢٠ سبتمبر ١٩٧٥ - ٢٥ سبتمبر ١٩٧٥م .

- عبد الرحمن فهمى محمد

* النقود العربية ماضيها وحاضرها ، القاهرة ١٩٦٤م .

- عبد الرحمن صالح عبد الله

* تاريخ التعليم فى مكة المكرمة ، مكة المكرمة ١٣٩٢هـ/١٩٧٣م

- عبد المنعم ماجـــــد

* الناصر صلاح الدين الأيوبى ، القاهرة ١٩٥٨م .

* ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها فى مصر " التاريخ السياسى" الطبعة الثانية ، الإسكندرية ١٩٧٦م.

- عزيز سوريـــال عطيـــة

* العلاقات بين الشرق والغرب تجارية وثقافية ، ترجمة فيليب صابر سيف ، القاهرة ١٩٧٢م.

- عطيـة القوصـــــى

* تجارة مصر في البحر الأحمر منذ فجر الإسلام حتى سقوط الخلافة العباسية ، القاهرة ١٩٧٦م .

- على بن الحسين السليمان

* العلاقات الحجازية المصرية زمن سلاطين المماليك ، القاهرة ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م.

* النشاط التجارى فى شبه الجزيرة العربية أواخر العصور الوسطى ١٢٥٠-١٥١٧م ، رسالة مقدمة للحصول على درجة الدكتوراه فى الآداب ، جامعة القاهرة ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م.

- علي بيومـــــــــــي
  * قيام الدولة الأيوبية في مصر ، الطبعة الأولى ١٩٥٢م ٠

- علي حسني الخربوطلــــي
  * مصر العربية الإسلامية ، الجيزة ١٩٦٣م ٠

- عمر رضا كحالـــــــة
  * معجم المؤلفين ، ١٥جزءاً ، دمشق ١٣٧٦-١٣٨١هـ / ١٩٥٧ - ١٩٦١م ٠

- فؤاد سزكـــــــــين
  * تاريخ التراث العربي ، الجزء الأول ، نقله الى العربيـــــة د . فهمي أبو الفضل ، راجعه د . محمود فهمي حجازي القاهرة ١٩٧١م ٠

- محمد جمال الدين سرور
  * سياسة الفاطميين الخارجية ، القاهرة ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م ٠
  * النفوذ الفاطمي في جزيرة العرب ، الطبعة الرابعة ، القاهرة ١٩٦٤م ٠

- محمد حسين الذهبي

* المسجد محور للنشاط ومركز للتوجيه الروحي والفكري للأمة ، بحوث مؤتمر رسالة المسجد ، ١٥ رمضان-٢٥ رمضان ١٣٩٥هـ / ٢٠ سبتمبر-٢٥ سبتمبر ١٩٧٥م.

- محمد حسين يوسف

* رسالة المسجد في العالم عبر التاريخ ، بحوث مؤتمر رسالة المسجد ، ١٥ رمضان-٢٠ رمضان ١٣٩٥هـ/ ٢٠ سبتمبر-٢٥ سبتمبر ١٩٧٥م.

- محمد عبد الرحمن الشامخ

* التعليم في مكة والمدينة آخر العهد العثماني ، الطبعة الأولى ، ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م.

- محمد عبد الفتاح عليان

* الحياة السياسية ومظاهر الحضارة في عهد دولة بني رسول باليمن ، رسالة دكتوراه ، جامعة القاهرة ١٩٧٣ م.

- محمد عبد الله عنان

* مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية ، الطبعة الأولى ، ١٣٥٠هـ/ ١٩٣١م .

- محمد لبيب التنوني

* الرحلة الحجازية ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٣٢٩هـ

- محمود رزق محمود

* العلاقات بين أرناط أمير حصن الكرك وصلاح الدين الأيوبي حتى واقعة حطين ، رسالة ماجستير ، جامعة عين شمس ، القاهرة ١٩٧٣م.

- نعيم زكي فهمي

* طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب أواخر العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٧٣م.

ههه

(ثالثا) المراجع الاجنبيـــة

- Dohaish, Abdul latif Abdullah, History of Education in the Hijaz up to 1925, Cairo 1398/1978 .
- Gerold, De Guary : "Rulers of Mecca" London, 1951
- Hindley, Geoffrey : Saladin, London , 1976 .
- Kammerer, A : "La Mer Rouge, Paris, 1925.
- Lewis, Bernard, "Egypt and Syria" , in The Cambridge history of islam, Vol L (Cambridge, 1970) .
- Rabie, Hassanein, The Financial system of Egypt. A. H. 564 - 741 / A.D. 1169 - 1341, London, 1972 .

-.-

طبـــع
سيدة زكـــــى